٧٢ ساعة في حياة برهان

٧٢ ساعة في حياة برهان

أحمد الصراف

منشورات
ذات السلاسل
الكويت

أحمد الصراف
72 **ساعة في حياة برهان**
الكويت: **ذات السلاسل**، 2020
300 ص ؛ 20 سم.
الردمك: 978-9921-740-14-1

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1441 **هـ** - 2020 **م**

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **ذات السلاسل للطباعة للنشر والتوزيع**

منشورات ذات السلاسل
الكويت

الناشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع P.O.Box 12041 Al-shamiyah, 71651 Kuwait

Thatalsalasil
Thatalsalasilbookstore
www.thatalsalasil.com.kw
+965 22466266/55
+965 22438304
info@thatalsalasil.com.kw

« ..... لو خُيرت بما أود أن أكون عليه في الحياة الأخرى لاخترت أن أكون مشردًا .... لا منتميًا ...»!!

طه عيسى موسى

الترمل

أغلقت «نوره» الباب خلف آخر المعزيات بوفاة زوجها «برهان» وانهارت بكل ثقلها على أول كنبة في الصالة شبه الخالية إلا من كراس خشبية تم جلبها من متعهد الأفراح والمآتم القريب من البيت.

عشرات فناجين القهوة المُرة، بعضها نصف ممتلئ وبعضها الآخر لم يُمس، تتوسط الطاولات الصغيرة المتناثرة أمام الكراسي، وبجانب الفناجين هناك عدة منافض مليئة بأعقاب سجائر ليس عليها كالعادة أية آثار أحمر شفايف، ويتناثر الرماد حولها، وتصدر من غالبيتها رائحة تبغ نتنة وقوية تملأ هواء الصالة.

كان المنظر غير مريح ولا سار لأي امرأة أو «ست بيت»، ولكن نوره لم تكن لحظتها في حالة نفسية تسمح لها القيام بأي جهد، وخاصة بعد أن أحست وكأن حملًا ثقيلًا أزيح عن كاهلها وهي تخلع فردتي حذائها من

رجليها، وتنخرط في بكاء صامت تحول لنحيب أكثر صمتًا، وهذه أول مرة تبكي فيها منذ وفاة زوجها برهان، فانشغالها بمتطلبات العزاء، وكم المعزين من حولها أبعدها عن التفكير فيما أصابها وتداعياته وتبعاته على حياتها ومستقبلها، وكيف أنها أصبحت الآن رسميا «أرملة»، بعد أن كانت ما يشبه ذلك لسنوات طوال!

أرملة...؟ يا لها من كلمة كئيبة وصِفة بشعة في مجتمعات لا ترحم من تُطّلق أو تترمل أو تُهجر. من سوء أو من حسن حظها أن ليس لبرهان، المرحوم برهان، أية ثروة أو ورثة لتدخل معهم في نزاعات، كما يحدث في حالات وفاة وطلاق كثيرة.

بالرغم من الدموع التي ذرفتها، والتي لم تستطع مغالبتها، إلا أنها في الحقيقة لم تكن تشعر بحزن الترمل، فالترمل صعب وقاس على النساء، فتأثيره على غالبيتهن أكثر صعوبة في أحيان كثيرة من فقد الأب أو الأخ، ولكن برهان مات وخرج من حياتها ومن قلبها

وفكرها منذ سنوات، يوم تركها، عندما كانوا يعيشون كأسرة في أمريكا، التي قرروا الهجرة لها. وكيف اختار التشرد بعدها فجأة، وترك البيت لها مع الوحدة والآلام والمعاناة.

شعور الأرملة صاحبها منذ ذلك اليوم، قبل أن تصبح كذلك قبل أيام على أوراق الدولة، فأن يأتي الترمل بتلك الطريقة يشبه قدوم الموت مع التقدم في العمر. فالموت غريب ومؤلم إن وقع في سن مبكرة، ولكن عادة ما يتم تقبله يومًا عن يومٍ، إن تأخر قدومه، مع الشعور بأن لا مناص من ذلك ومن مغادرة هذه الدنيا بعدها، والتحول لشيء آخر تحت الأرض أو فوقها، فلا فرق، وأحيانًا كثيرة يتمنى البعض الموت، ويستعجلون ساعة الرحيل، إما للتخلص من آلام جسدية أو نفسية، أو لشعورهم بالإرهاق من مقاومة القدر، وشعورهم بعدم جدوى كل هذه المقاومة للبقاء أحياء لأطول فترة بصورة مفتعلة من خلال أجهزة طبية معقدة، وخراطيم دقيقة

تنقل الدواء للجسم وتسحب الفضلات منه، والاضطرار لتناول كميات من الأدوية المرة وفقد الرغبة في الحديث أو مقابلة أحد.

اعتادت نوره على الشعور بأن برهان هجرها، وعندما طال غيابه أصبحت تشعر بالترمل، ومع الوقت سيطر عليها هذا الشعور، واستمر معها هذا الشعور حتى بعد أن عادت من أمريكا لبيت أهلها في الشام. كما إن هذا الإحساس لم يتغير كثيرًا حتى بعد أن عاد برهان «لها» متخليًا عن تشرده، فقد توقفت رسميا أن تكون مهجورة أو أرملة، ولكن داخليّاً استمرت تشعر بذلك، فالجرح كان عميقًا؛ فبرهان عاد لها ولبيتها ولكنها كانت عودة باردة بلا روح. كما إن عودته وضعت حدا لعلاقة سعيدة وجديدة كانت تعيشها في تلك الأيام. كما كانت تشعر أن برهان لم يعد لها بل عاد لحاجة في نفسه، ومات دون أن تعرف لم هجرها ولم عاد لها!

انشغالها أو تجاهلها الغريب للحزن يشبه إلى حد

ما انشغالنا أو عدم شعورنا بما يصيبنا من جروح في خضم مشاجراتنا ونحن صبية أو فتيات صغيرات. ففي لحظتها ينصب كل تفكيرنا على تحقيق النصر والتغلب على الخصم أو من نتعارك معه، خلال ذلك لا نعبأ ولا نكترث لما نصاب به من جروح ولا ما ينال ملابسنا من تمزق. ولكن ما أن ينتهي العراك حتى تبدأ آلام وآثار الجروح والكدمات بالظهور على الوجه واليدين، وننظر باستغراب لخصلات الشعر المرمية على الأرض، وما يتبع ذلك من شعور بالذنب والكثير من الألم، وننتبه أيضًا لما أصاب ملابسنا من تلف وما علق بها من أتربة وأوساخ. ربما لهذا السبب تزداد آلامنا النفسية والجسدية مساء، عندما تصمت أصوات مدافع النهار وتخفت الضوضاء من حولنا ويتوقف صخب المركبات وضجيج المحركات، ويتلاشى أصوات البشر، وتتوقف المعارك، حينها تطفو الجراح والآلام والصدمات أو الخيبات التي انشغلنا عنها طوال اليوم، تطفو جميعها إلى السطح لتقلقنا وتطرد

النوم عن أعيننا، خاصة إن تغلبت الأفكار الحزينة على السعيدة منها، مع فشلنا في تأجيل التفكير بها لوقت آخر، وقد يغلبنا السبات بعدها أو تبقينا الأفكار وما يتبعها من قلق مستيقظين حتى ساعات الصباح الأولى.

مسحت «نوره» دموعها وما تيبس من آثارها على خديها، وعدلت من ظهرها الذي تقوس من إجهاد الأيام السبعة الأخيرة وهي جالسة على طرف الكنبة قبل أن تقوم من مكانها بتثاقل وتتجه لغرفة نومها، ويدها اليسرى ملتفة خلفها تسند ظهرها وكأنها تحميه من الكسر، لترتمي على السرير الخالي من أي غطاء نظيف وتغرق في نوم عميق كانت بحاجة ماسة له.

كانت الساعة تشير للرابعة صباحًا عندما استيقظت من نومها. تبين لها أنها استغرقت في نوم دام أكثر من ثمان ساعات، وأن ليس بإمكانها مواصلة النوم أكثر.

لم تعرف لأول وهلة ما كان يدور حولها، وأين هي، وعندما مدت يدها بحثا عن زر الإنارة بجانب السرير

تذكرت أحداث اليوم، فلم تستعجل الخروج من الفراش، بل بقيت مستلقية على ظهرها وأجالت بصرها في فضاء الغرفة وسقفها وانتبهت إلى أن هناك ثلاثة من مصابيح الثريا الأنتيك المعلقة في وسط السقف بحاجة إلى تبديل، وأن الثريا نفسها بحاجة إلى من يزيل عنها ما علق بها من غبار الزمن وخيوط العنكبوت الكثيرة التي تدلت منها، أو التصقت بأجزائها، ولكنها لا تتذكر أنها رأت يومًا عنكبوتًا في السقف أو في أي من زوايا غرفة نومها، وهي أصلًا لا تخاف العناكب، فقد كانت تلعب بها وهي صغيرة، وكانت أمها تنهرها وتطلب منها تركها لحالها، فقد كانت تخاف منها، لا بل وتشعر برعب حقيقي من منظرها، ولكنها لم تكن ترد عليها وتستمر باللعب معها، وكانت أحيانًا تحمل واحدة بيدها وتلاحق أمها من غرفة لأخرى، وهي غارقة في ضحكها، والأم تجري هاربة منها صارخة يملؤها الرعب.

بدا سقف الغرفة في تلك اللحظة خاليًا من أية خطوط أو تعرجات أو ألوان كانت تعتقد يومًا أنها موجودة على

جوانبها. سقف الغرفة هو جزء من المكان الذي عاشت فيه كل حياتها، ولم تعرف سقفًا غيره قبل أن تترك سوريا وتهاجر إلى أمريكا مع برهان.

كانت لها دائمًا علاقة ما مع سقف غرفتها، قبل الزواج، وبعد الزواج، وبعد العودة من أمريكا، فقد بقي السقف ملازما لها، وجزء منها.

كانت وحيدة أهلها، ولم تكن علاقتها بوالدها قوية بما يكفي، أما علاقتها بأمها فقد فترت كثيرًا بعد بلوغها، وأصبح ذلك السقف مع الوقت رفيقها في حزنها وسعادتها وبالذات في نشوتها. فقد كانت تتخيل وجوه من تعرف مطبوعة أو مرسومة بين خطوط السقف وتعرجاته.

وفي لحظاتها الحميمة كانت تنشغل بالبحلقة في كل أجزاءه، وهي تلامس نفسها مسترجعة وجه مدرس الجغرافيا الذي كانت مغرمة به.

كما كان السقف رفيقها، والشيء الذي كانت تلجأ له

أو تهرب له عندما كان برهان يجرها من يديها لغرفة النوم بغير رضاها أحيانًا ويلقيها على ظهرها، ويجبرها على ممارسة الجنس معه، لأنه، كما كان يقول لها، بحاجة لأن يفعل ذلك، وكانت تصدقه. وأحيانًا كان يحملها بين ذراعيه القويتين ويسير بها نحو السرير ويلقيها عليه ويرمي نفسه عليها، ويحاول عنوة، وأحيانًا بعجلة وقسوة غريبة، نزع ملابسها الداخلية أو حتى تمزيقها.

لم تحاول أو ترغب مطلقًا رفض طلباته، بالرغم مما كانت تشعر به أحيانًا كثيرة من مهانة وضيق وألم، وأيضًا لرغبتها كأنثى في أن توفر لزوجها ما يريد من أجل إمتاعه. كما كانت متأثرة من الأقوال التي كانت تسمعها من أمها وصاحباتها من أن فشل المرأة في توفير المتعة الجنسية للرجل سيدفعه للبحث عنها في مكان آخر، وكل ذلك كان يدفعها لأن تتحمل وتصمت، فقد كانت تمني النفس بأن غريب نزواته ستنتهي يومًا، ويعود لما كان عليه، فهي لا تنسى المرات الكثيرة التي كانت فيها بنفس

الوضعية وكانت اللذة مع برهان رفيقتهما، بدلًا من ذلك السقف الصامت. فقد كانت ممارسة الجنس بصورة طبيعية مع برهان مسألة ممتعة وجميلة، ومن أجل تلك اللحظات كانت تتساهل أو تغفر له لحظات جنونه النادرة والغريبة الأخرى. وكانت تعتقد أنه كان ينتقم من شيء ما بداخله من خلالها، من خلال اقتحامها بقوة وعنف وأحيانًا بألم.

الاكتئاب وأمريكا

منذ أن عادت نوره خالية الوفاض تمامًا من أمريكا، بلا زوج ولا مال ولا ذكريات جميلة، وبولد غير معروف النسب، وهي تعاني من الآثار الجانبية لأدوية الاكتئاب التي كانت مضطرة لتناولها بكميات كبيرة.

عندما هجرها برهان ودخلت في دوامة القلق نتيجة الشعور بعدم الأهمية والخوف من المستقبل وعدم القدرة على تلبية متطلباتها المادية. نصحتها أخصائية العلاج النفسي في أمريكا بضرورة تناول أدوية محددة تزيل الضغوط النفسية عنها، وحذرتها من أن امتناعها أو عدم انتظام تناولها قد يعجل في إصابتها بالرغبة في التخلص من حياتها. كما شجعتها الدكتورة على التفكير جديا بموضوع تبني من يشغلها عن بقية همومها، ومن الشعور بعدم الأهمية، بعد أن أصبحت بحاجة ماسة لمن يملأ حياتها بعد أن هجرها برهان وتركها وحيدة.

وبعد أن عادت لسوريا كان ل»يونان»، شريك والدها الجديد في الصيدلية، دوره في مساعدتها في التخلص من تلك الأقراص المتعبة، التي كانت تعتقد أنها كانت ستصاب بالجنون بدونها، فلم يكن هناك في أمريكا أحد من حولها، فلا أهل يعتمد عليهم ولا أصدقاء يمكن طلب مساعدتهم، أو حتى أقارب بعيدي النسب يمكن أن يقفوا معها وهي في تلك الحالة، فكانت للجميع أعذارهم ومشاغلهم وهمومهم. كما أن سوء معاملة برهان للكثيرين منهم جعلتهم يقللون من تبادل زياراتهم تدريجيّاً إلى أن انقطعوا عنهم، وبالتالي عنها تمامًا.

بالرغم من الآثار الجانبية السيئة إلا أن الأدوية المضادة للاكتئاب ساهمت في جعل حياتها أقل بؤسًا. حتى صديقتها الأمريكية الوحيدة «جين» كانت تشتكي، قبل اعتيادها على تناولها، من نوبات غضبها غير المتوقعة وصعوبة التحكم بها. وكانت أحيانًا كثيرة تفاجئ ببرودتها ولا مبالاتها غير المتوقعة، وصمتها الذي

كان يدوم لساعات. ولكن مع الوقت والأدوية اختفت تلك الأعراض، وحلت محلها أعراض أخرى حيث أصبحت تقضي ساعات أطول في النوم، وتصحو بعدها متعبة وكأنها لم تحصل على كفايتها. كما قللت تلك الأدوية من شهيتها للأكل، وكان ذلك الجانب الوحيد الذي لم تكن تشكو منه كثيرًا. ومع وجود «آدم» في حياتها، ابنها بالتبني، أصبحت مجبرة على قضاء وقت أطول معه، بدلًا من قضاء الوقت في النوم الذي كادت أن تصبح مدمنة عليه.

كان برهان يرى أن الفرد في أمريكا لا يحتاج للكثير من العلاقات الأسرية والزيارات، وإن تلك العلاقات، في محيطه على الأقل، تشوبها روح المجاملة ويحكمها النفاق غالبًا. فالغالبية تحسد بعضها البعض، وكل واحد يريد أن يثبت أمام الآخرين أنه أكثر نجاحا في وطنهم الجديد من غيره، فالتفاخر بتوافه الأمور كانت السمة الغالبة. كما كان يعتقد أن التلفزيون هو أفضل صديق،

وأن يمكن الاستعاضة عنه بكل الأصدقاء، وخاصة إن كانت شاشته عريضة ومعه اشتراك في أكبر عدد من القنوات الفضائية المتنوعة.

قلة عدد أصدقائه وعدم ممارسته لأية هواية، وقلة من كان يزوروهم من معارف وحتى من الجيران، وإدمانه على مشاهدة التلفزيون ساهمت كلها حتمًا في شعوره تاليًا بالضيق والوحدة، وربما لم يكن سهلًا عليه الاعتراف بأنه كان مخطئًا في التخلص من كل الأصدقاء والمعارف، فاستمر في غيه، بعد أن أخذته العزة بالإثم، وكل هذا دفعه في النهاية لأن ينعزل أكثر، ولم يكن صعبًا عليه في النهاية أن يختار الصمت لساعات طويلة ثم بعدها الانتقال لمرحلة الغياب المتقطع عن البيت، قبل دخوله مرحلة التشرد! حدث كل ذلك دون أن تنجح أو تتمكن أبدًا من معرفة السبب الحقيقي أو الأسباب التي دفعته للقيام بما قام به، وما كان يدور برأسها من أعذار أو أسباب لم يكن أكثر من تخمينات.

الزواج والفراغ

تذكرت نوره، وهي لا تزال مستلقية على فراشها، كل المشاعر المختلطة والمتضاربة التي انتابتها يوم وافقت على الزواج من برهان. صدمها تصرفه الغريب في ذلك اليوم وردّة فعله غير المتوقعة عندما ذكرت له إن شرط والدها الوحيد هو أن يصبح «صهر بيت»! قبل برهان الشرط بسهولة، دون تردد أبدًا، وكان ذلك مثار دهشتها. كانت تتوقع منه أن يغضب أو على الأقل يبدي اعتراضا أو حتى ملاحظة صغيرة، وهو الذي كان يلمح ويصرح دائمًا إلى أنه مختلف عن الآخرين ولا يحب أن يسيطر على حياته أحد، ولكنه مع هذا قبل شرط أسرتها، وقبل الانتقال للعيش معها في بيت والديها بحجة أنها وحيدتهم ولم يكونوا يرغبون في تركها تذهب بعيدًا عنهم أو تتعرض لأية مهانة، خاصة أن أعراف الزواج في سوريا، وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة،

سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، تتقبل نظام «صهر البيت»، أي انتقال الرجل للسكن في بيت أهل الزوجة، دون اعتراض كبير. وهكذا تحولت غرفتها كصبية ومن ثم كفتاة مراهقة عذراء ووحيدة حالمة، لغرفتها كامرأة تشارك زوجها جسدها وكل ما لديها بعد أن أصبح شريك حياتها، لتستمر علاقتها بالسقف الذي أصبح يمثل ما يشبه الانعكاس لغرفة نومها وبيت أهلها وشقق الجيران، وأجزاء من الحي. وكانت تتخيل نفسها وهي تسير بين زوايا الغرفة وممرات البيت وشوارع الحي الضيقة ودهاليزه العتيقة، وهكذا استمرت علاقة البحلقة التي كانت قبل الزواج بالانشغال بما كانت تتخيل رؤيته وهي تتلمس جسدها كما علمتها زينب، ابنة جارهم «عمو تيسير»، التي بقيت بلا زواج، لإصرار أبيها على أن ينتقل من يريد الزواج بها للسكن معهم، فعارض الخطيب الأول الفكرة، وهرب الثاني من أمر آخر، وهي لا تزال، بعد أن فاتها قطار الزواج، وكأن للزواج قطار، بانتظار الثالث،

الذي قد لا يأتي أبدًا.

كانت نوره تشعر في تلك الليلة بأن فراغًا أصبح يزحف على حياتها، فراغ غريب لا تعرف كيف تفسره، أو تبعد التفكير فيه. شعرت أن روحها أصبحت فارغة فجأة بصورة مقلقة. تذكرت أنها قرأت أن الأماكن تبدو خاوية ولا تعني شيئًا إن غاب عنها من نحب، أو من اعتدنا العيش معه والسكن إليه، ولكنها لم تكن تحب برهان، ليس بعد ما نالها من هوان على يديه، وما رأته من غريب أطواره عندما انتقلا للعيش في مدينة هيوستن بولاية تكساس الأمريكية.

كانت حياتها وبرهان، لفترة طويلة، مريحة وهنية، حتى بعد أن انتقلا للعيش في أمريكا. لم يكونا يمتلكان كل ما كانا يشتهيان أو يرغبان في امتلاكه، ولكن لم يكن ينقصهم الكثير. كان برهان يقنع دائمًا بالقليل، وكان حبه للقراءة ولعمله يملآن حياته، حيث لم يكن يتوقف عن سرد تفاصيل ما كان يقوم به كل يوم، وما يجري

له مع رفاقه. وكانت تستمع له بشغف أحيانًا، وكان ذلك يسعده، وخاصة عندما تبادره بالسؤال عن بعض التفاصيل والتعليق على إجاباته.

كانت المطالعة تشغله عن أشياء كثيرة، حتى عنها، وكانت تشعر أحيانًا بالغيرة من كتبه. كان يحدث ذلك قبل أن تستولي برامج التلفزيون الأمريكية ومسلسلاتها عليه، وتشغله أكثر عنها. كان متعلقًا كثيرًا بكتبه، وكانت الكتب التي لم يطالعها أو يتمكن من قراءتها، عندما كانوا في الشام، الشيء الوحيد الذي بذل جهدًا لشحنه مع القليل من الأثاث لأمريكا، بالرغم مما تكلفوه، وكل ذلك بسبب خوفه من ألا يجد الكتب التي يرغب في قراءتها هناك، وخاصة باللغة العربية.

ويوم عاد في أحد الأيام من عمله الذي كان يعشقه مبكرًا إلى البيت، على غير عادته اعتقدت أنه مريض، ولكنه فاجأها بالقول أنه قدم استقالته من عمله، وأنهم وافقوا عليها فورًا.

شكل ذلك صدمة لها. حاولت أن تعرف ما الذي جرى، ولكنه طلب أن تمهله بعض الوقت. تركته لحاله، معتقدة أنه سيعود للعمل أو سيتم استدعاءه للوظيفة ثانية، بعد رفض استقالته، لأنه كان يخبرها كثيرا عن إعجاب رئيسه به وثنائه المستمر على عمله وشخصه، ولكن لم يحدث شيئ من هذا، وهكذا طالت فترة بقائه في البيت، خاصة أنه لم يكن يبذل أي جهد لمساعدتها في تنظيف البيت أو ترتيبه، على الأقل تنظيف الأماكن التي كان يقوم بالنوم والتحرك ضمنها. كما انتظرت أو توقعت أن يسعى للبحث عن وظيفة أخرى، أو حتى بذل القليل من الجهد في قراء إعلانات الوظائف التي كانت تملأ صحف مدينتهم، ولكن لا شيء من ذلك أبدًا!

وهكذا أصبحت مع الوقت هي التي تعيل أسرتها، وتتكفل بكل مصاريف البيت مما كانت تكسبه من عملها كمساعدة سكرتيرة تنفيذية في الشركة الصناعية التي كانت تعمل بها صديقتها «جين»، ولم يكن راتبها مجزيا أصلًا.

كان برهان ونوره، كغيرهما من الشباب العرب، وخاصة حديثي التخرج والزواج، والمتعلمين جيدًا يمتلؤون رغبة وحماسًا لتحقيق الكثير لأنفسهم... ولأوطانهم! وكانوا يشعرون بضيق محيط تحركهم لتحقيق طموحاتهم، ويفتقدون للكثير من الإمكانيات، هذا إن وجدوا عملا يليق بخبراتهم وتعليمهم، ولم يكن غريبًا أن الغالبية كانت تفكر في الخلاص الذي كان يعني الهجرة إلى العالم الغربي.

كانوا يعتقدون، كغيرهم، أن أمريكا هي الجنة على الأرض، وأن الوصول لها غاية يجب أن تدرك، وهدف تهون الصعاب في الوصول له، ويجب أن يأتي فوق بقية الغايات والأهداف والأحلام. ولكن ما أن تطأ أقدام هؤلاء أرض الأحلام حتى يتبين لهم أن أمريكا الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية والحبكات الروائية شيء والواقع شيء آخر.

فالأمان في المجتمع الأمريكي مفقود تمامًا، والفرق

في تكلفة المعيشة والسكن بين الحي الآمن وغير الآمن كبير جدًا، ونشرات الأخبار تكتظ يوميًا، وعلى مدار الساعة، بأخبار جرائم الخطف والحرائق المتعمدة، وضحايا المخدرات، والقتل والسرقة، ولا يكاد يمر شهر دون سماع خبر عن عملية قتل جماعية يقوم بها معتوه في مدرسة أو سوبرماركت.

نعم، مستوى الحياة في أمريكا رائع، ولكن ثمن ذلك ليس بالقليل، بل يحتاج للعمل والتعب والشقاء المستمر للتمكن من دفع أقساط ما تعنيه أمريكا من بيت وسيارة وغسالة وثلاجة وعشرات الأمور المكلفة الأخرى.

أما الوطن، فبالرغم من كل منغصاته ومشاكله وقلة فرص العمل فيه، مع الارتفاع المستمر في معدلات البطالة، وتفشي الفوضى والفساد، إلا أنه يشبه الصحة، لا تُعرف قيمتها إلا عند فقدها.

فمن يعيش في أمريكا يجب أن ينسى ما يعنيه الوطن، للبعض بطبيعة الحال، من راحة وأمان ومشاعر عائلية

وأعياد دينية ووطنية وزيارات ومشاركة الجيران في مختلف المناسبات والتراحم والمحبة والحب الأسري، والتآلف، وأن يقبل أو يحاول الاندماج مع مجتمع مختلف عنه في الأخلاق والقيم وفي أعياده ومناسباته الدينية، وحتى في معتقداته وتنوع كنائسه.

المجتمع الأمريكي بالذات مجتمع استهلاكي بشع يدفع الإنسان للتوحش في الاستمتاع بالأمور المادية على حساب صحته ودخله، وخير مثال أشكال وأحجام العربات التي تخرج من محلات السوبرماركت محملة بأكثر المواد غرابة والتي لو تمعن أو فكر جيدًا فيها من اشتراها لتبين له أو لها عدم حاجتهم بالفعل لنسبة معقولة منها، ولكن تأثير الدعايات التجارية على دميع الأسر وطريقة وأسلوب المعيشة لا تتركان غالبًا للفرد حرية التصرف والاختيار العقلاني.

بداية التشرد

اعتقدت نورة في البداية أن برهان بحاجة لأن يراجع نفسه، أو أنه بحاجة لإجازة قصيرة، أو لفترة راحة ليفكر فيما ينوي القيام به، بعد أن رفض رئيسه منحه ترقية أو زيادة في الراتب. كان يعتقد بل كان على ثقة بأنه موظف جيد، وأن وجوده في الشركة أمر حيوي، ولكن فترة عدم التقدير طالت دون أن يحظى بترقية أو تقدير مالي، كما حصل مع زملائه. وعندما قرر أن يستخدم عامل الضغط لم يكن يخطر بباله أن رئيسه سيوافق فورًا على استقالته، دون أن يناقشه فيها، بل اكتفى بأخذ كتاب الاستقالة منه ليدون عليه شيئًا، ثم يسلمه الكتاب ويطلب منه مراجعة شئون الموظفين لتسوية حسابه! هذا ما أخبرها به بعد أيام بعد أن ألحت في معرفة سبب استقالته. وشكت أنه ربما اختلق تلك القصة فقط لأنه أراد ألا يعمل ويبقى في البيت لا يفعل شيئًا غير

تقليب قنوات التلفزيون وشرب البيرة وطلب البيتزا من المطعم القريب..... ولا شيء غير ذلك، بعد أن قطع صلته بالكتاب تمامًا.

كانت راضية مؤقتًا، وإن على مضض شديد، بوضعهم المالي الصعب، وحالته وما كان يتسبب به من إزعاج وينشره من قذارة أينما جلس أو اختار أن ينام. كانت تتأفف وتشتكي من طريقة معيشته التي أصبحت تتسم أكثر وأكثر بالقذارة، وإصراره على السير في البيت حافيا، وتتعب أكثر في تنظيف الأرض من وراءه، فقد كانت شبه موسوسه بالنظافة. كان لديها أمل في أن يعود برهان يومًا لرشده، ويجد عملًا، أي عمل يشغله عن الوضع الذي خلقه لنفسه وأصبح مستمتعا فيه، أو هكذا كان يبدو، ولكنه قرر، وأيضًا فجأة، بعد أن طال جلوسه في البيت ورفضه تنظيف مكانه، وحتى نفسه، أو القبول بفكرة قص شعره أو أخذ الاستحمام اليومي الذي كان معتادًا عليه، بل وأصبح يفضل النوم على

الأرض وأحيانًا على الصوفا الكبيرة في الصالة، بعد أن طردته من غرفة نومهما. ومع الوقت أصبحت رائحته لا تطاق، فمنعته من استخدام حتى حمامها الملحق بغرفة نومها، أو التي كانت يومًا كذلك. كما تزايدت شكواها من كسله وسكره، وفي يوم طفح الكيل بها فطلبت منه أن يغادر البيت لساعات لأنها تريد تنظيف الزاوية التي كان يفضل الجلوس والنوم فيها، بعد أن أصبحت كالجحر. لم يعجبه طلبها فرد عليها بقسوة، وردت عليه بقسوة أشد، ودخلا في شجار كان الأكثر عنفا وقسوة مما سبقه من جدال ونقاش وتبادلا اتهامات قاسية وذرف الكثير من الدموع. كان النقاش ينتهي غالبًا عندما يسكت ويكتفي بالنظر لها من خلف نظارته، وغالبًا دون أن ينطق بحرف، ومع الوقت تعبت وتوقفت الدخول في جدال معه، فقد أتعبها، وشعرت أن البكاء أصبح يستنزف قواها، التي هي بحاجة لها لتذهب كل صباح لعملها ولتتمكن من وضع الخبز على الطاولة في نهاية اليوم، لكليهما.

وفي يوم، بعد أن يئست منه وتعدد شجارها معه فقدت نوره أعصابها وطلبت من برهان أن يترك البيت. لم تكن على ثقة بأن هذا ما كانت بالفعل ترغب به، خاصة بعد أن لاحظت بريقًا غريبًا في عينيه وهو يسمعها تطلب منه أن يرحل. شعرت بالندم على ما تفوهت به، وكادت أن تتراجع وتعتذر، ولكنها كانت بالفعل متعبة منه ومن وضعه بعد أن فقدت الرجاء والأمل في أن يقوم بشيء ما يغير من الفوضى واللامبالاة التي كان يعيشها. تركته واقفًا واجمًا في المطبخ وانسحبت بتثاقل نحو غرفة نومها وهي تشعر بانهيار قواها تمامًا.

عندما استيقظت مرهقة في صباح اليوم التالي من أحداث الليلة السابقة، اكتشفت أن برهان لم يقضي ليلته في البيت، ربما لأول مرة، فقد كان جهاز التلفزيون صامتًا، على غير العادة، ولم تكن هناك علب بيرة فارغة أو بقايا أكل على طاولات القهوة الصغيرة. شعرت بالقلق وبمشاعر مختلطة تنتابها، منها الشعور بشيء من الراحة

في أنه ترك البيت لها وغادر، ولكنها كانت أيضًا تشعر بعدم الأمان وباحتمال تعرضه لحادث ما، وكيف أن كل ذلك سيشغلها عن الاهتمام بنفسها والاستمرار في عملها .

وضعت أفكارها السوداء جانبًا، وقررت ترك كل شيء في الصالة على وضعه، وأغلقت الستائر، وأقفلت الشبابيك والأبواب، بعد أن انتهت من تناول إفطارها غادرت البيت متجهة لعملها .

ما إن أغلقت الباب خلفها واستدارت حتى وجدت برهان مستلقيًا على الأعشاب مستغرقًا في نوم عميق في حديقة البيت الأمامية على حشائش طالت كثيرًا من قلة العناية بها، وأصبحت بحاجة، مثلها ومثله، لمن يعتني بها ويشذب أطرافها ...!

لم تشعر بالشفقة عليه فلم تكن لديها لا الطاقة ولا الحماس لذلك، ولا حتى الوقت للاهتمام به. تركته نائما في المكان الذي اختاره وذهبت لعملها مسرعة وهي

متوجسة من احتمال أن يستيقظ على صوت محرك السيارة ويؤخر ذهابها للعمل.

كانت تلك المرة الأولى التي يتغيب فيها برهان عن البيت منذ زواجهما. وكانت مشاجرة الليلة السابقة الأقوى حتى تلك اللحظة.

الاعترافات

عادت نوره لبيتها قبل موعدها بساعة أو أكثر، بعد أن دفعها قلقها، وربما الفضول، على مصير برهان، فقد تذكرت أنها أغلقت باب البيت بالمفتاح ولم تكن على ثقة بأن برهان لديه مفاتيحه. كان ظنها في محله فقد وجدته جالسا في نفس المكان الذي كان نائما فيه في الليلة الماضية، مسندًا رأسه لسور البيت الداخلي وضامًا ركبتيه لصدره، كما يحب أن يفعل عندما يستغرق في مشاهدة فيلم تجذبه أحداثه.

أمسكت بيده، وطلبت منه بلطف أن يدخل معها البيت، نهض وسار دون مقاومة.

سكوته وتجاوبه معها، واستمرار صمته شجعها على أن تطلب منه أن يغتسل قليلا، ويرتب شعره وملابسه لأنها تود أن تصحبه لمختبر فحص الدم لأمر هام. نظر لها بشرود ولم يرد بل ذهب واغتسل قليلا وسبقها للسيارة،

وجلس في المقعد الأمامي المجاور للسائق فهو لا يميل أبدًا لقيادة السيارة، ولكنها طلبت منه أن يعود لداخل البيت لتناول شيء ما بعد أن قضى كل تلك الساعات وحيدًا في الخارج.

في طريقهما إلى المختبر قالت نوره لبرهان أنها قلقة بشأن صحتها وقدرتها على الإنجاب وأنهما سبق وأن تطرقا لهذا الموضوع عدة مرات، وأنه يعرف ما أخبرها به طبيب صحة العائلة في الشام، وكيف إن احتمالات حملها بجنين ليست كبيرة، ولكنها تشعر هذه الأيام برغبة كبيرة في الإنجاب، وهي على ثقة بأن الطب منذ يومها قد تقدم كثيرًا، وخاصة في الولايات المتحدة، وهناك أبحاث كثيرة في مواضيع الخصوبة والحمل، وتشعر أنها كانت بحاجة لرأي ثان. وقالت له بتردد واضح أنه ربما عليه أيضًا أن يعطي عينة من دمه لفحصها.

طلب منها فجأة أن تقف على طرف الطريق، وضع يده على يدها الممسكة بمقود السيارة وضغط عليها

بقوة غريبة، ولكنها لم تتأوه، بل قاومت الألم. نظر لها وقال أنه سيتبرع بالدم ولكنه سوف لن يخضع لأي فحص طبي. وقال أنه لا يود حتى أن يعرف نتيجة فحص الدم الخاصة به، وأن تبقيها سرًا بينها وبين الطبيب فهو يكره فكرة أنه قد يكون السبب في عدم حصولهما على طفل.

اعترضت على الشرط، ووصفته بالسخيف، ثار وكاد أن يمد يده عليها، أو هكذا بدى لها، لولا أنها تفادت غضبه وأوقفت السيارة فجأة وفتحت بابها ووقفت على الرصيف تنتحب.

أثاره تصرفها وبدأ بالصراخ، ثم جلس على كرسي قيادة المركبة وطلب منها أن تستقل السيارة ولكنها رفضت، فاضطر لأن يترجل ويذهب صوبها ويضمها لصدره وينخرط معها في البكاء.

لا تعرف لماذا ولكنها شعرت بالشفقة عليه، فليس سهلًا على من في وضعها وتربيتها أن ترى رجلًا يبكي وتقف مكتوفة الأيدي. مدت يدها وضمته لصدرها، فخف

نحيبه، وقال لها وهو لا يزال يكفكف دموعه بأنه ربما يكون السبب! أبعدته عنها وسألته عن قصده، فمسك بيدها وأخذها للسيارة وقال لها إن في حياته، كما في حياة أي إنسان، مجموعة من الأسرار، التي تبدو وكأنها هياكل بشرية عظمية معلقة داخل خزانة حديد مغلقة لا يود لأي كان أن يطلع عليها. قال لها أنه أصيب بمرض جنسي عندما كان في أوائل سن المراهقة، فقد أرسله والده ليقضي بضعة أيام في بيت عمته في اللاذقية. كان سعيدًا في اليومين الأولين بكل شيء جديد من حوله، غرفة النوم، الطعام، الحي المزدحم بكل أصناف البشر. كان كل ذلك يختلف عن الرتابة والهدوء في بيتهم في الشام وحيهم السكني. ولكن سرعان ما بدأ الملل يتسرب لقلبه اليافع. كان الوقت صيفًا، وليس في داخل البيت الذي عرف كل زواياه ما يسلي، فقد كانت عمته تعيش مع ابنتيها فقط، فقد كان زوجها، سهيل العراقي، غائبًا، وقيل له أنه يتاجر في التمور التي يجلبها من

البصرة والعشار، والتي كان يتفنن في اختيار الجديد منها وتعليبه بشكل لائق وبيعها لتجار سوق الحميدية وزوار السيدة زينب. وقال أنه شعر يومًا بالضجر فطلب من عمته أن تأذن له بالتجول في المنطقة القريبة، ولكنها كانت منشغلة بالمطبخ، وشعر أنها ربما لم تسمع جيدًا كل ما قاله، ولكنه سمعا وهي توصيه أن ينتبه لحاله.

قادته قدماه للأزقة الضيقة والمتعرجة من منطقة الميناء، القريبة من بيت عمته. شعر فجأة أنه أضاع طريقه، فأخذ يدخل زقاقًا ويخرج من آخر، وكان الوقت ظهرًا والجو حار والشوارع خالية تمامًا. شعر بعطش شديد، ولكنه استمر في سيره، وقع نظره على امرأة تجلس على عتبة بيتها، وقد انحسر رداؤها تمامًا عن ساقيها وبان فخذيها الطويلتين. شعر بالخجل من أن يتقدم منها ليسألها عن طريق العودة لبيت عمته، أو يطلب منها شربة ماء. دلها حس الأنثى أنه يبحث أو يريد شيئًا ما، فعرضت مساعدتها عليه بلغة عربية

ركيكة، فشجعته لهجتها الغريبة لأن يقترب منها بتردد ويطلب ماء يشربه. ابتسمت المرأة ووقفت وأمسكته من ذراعه وقادته لداخل بيتها. أعطته كأس الماء بيدها اليسرى، وما أن بدأ بشربها حتى مدت يدها الأخرى وامسكت به وقادته بهدوء للداخل لم يشعر بالرغبة في المقاومة واستمر في شرب الماء، وقبل أن ينتهي وجد نفسه في غرفة نوم وهو ملقى على ظهره على السرير، كانت تجربته الجنسية الأولى مؤلمة وغريبه ولم يكن نفسياً مستعداً لها فقد حدثت بسرعة كبيرة بحيث لم تتح له الفرصة للهرب أو التمعن فيما كانت تقوم به تلك المرأة معه.

كما أن خوفه وما أحس به من ألم أثر كثيرًا على شعوره بنشوة التجربة، ولكن ذكوريته أبت عليه إظهار ذلك أمام امرأة غريبة.

خرج من الحمام مرتبكا ومرتعبا من الرائحه التي أصبح يشمها. كانت المرأة بانتظاره في الخارج فلم

يجرؤ على النظر إليها. قادته لباب البيت وقبل أن يخطو خارجا دست في جيب قميصه عمله ورقية لم يعرف ابداً مقدارها، وقالت له إن عليه العودة لها ثانية. كان قلبه يدق بشده وكأنه ارتكب لتوه جريمة، وكان يشعر بالخوف من أن أحداً ربما رآه وهو داخل أو سيراه وهو خارج من بيت تلك اليونانية، أو هذا ما اعتقده، وربما سيخبر أحدهم عمته أو أهله بما قام به.

أخذ يجري محاولا الابتعاد عن البيت بأسرع ما كانت تستطيع رجلاه الطويلتان تحمله، ولم يتوقف إلا بعد أن شعر بقوة ضربات قلبه في صدره.

هول التجربة السريعة التي مر بها أنسته أمر العملة الورقية التي كانت بجيبه، وعندما تذكرها في اليوم التالي كانت عمته قد غسلت القميص وكوته، ووجدها في جيب القميص وقد تفتت لقطع ذهبت ملامحها كليًا، وأصبحت غير ذات قيمة.

أكمل برهان رواية ما حدث من أنه اضطر بعدها

لتكرار الذهاب إلى طبيب المدرسة، بعد أن أصبح يواجه صعوبة في التبول، تحولت بعدها بأيام لآلام مع تغير لون بوله للّون الأصفر الداكن قبل أن يصبح قريبًا من الأحمر. استغرق علاجه أسابيع عدة تناول خلالها مختلف الأدوية وعانى الكثير قبل أن يشفى تمامًا. وأخبرها كيف أن الطبيب حذره، وهو يبتسم بخبث ويرمش بأحد عينيه، دون أن يعرف تفاصيل ما جرى له، من أن عليه عدم إعادة تلك التجربة ثانية، فقد يتسبب ذلك في عدم قدرته مستقبلا على الإنجاب.

فوجئت، لا بل صدمت من اعترافاته، ومن التفاصيل التي ذكرها، ولكنها لم ترد عليه، فما نفع النقاش في أمر مرت عليه سنوات ولا يفيد الكلام فيه ثانية. ولكن ما قاله شجعها لأن تسأله إن كانت هناك هياكل عظمية أخرى في حياته؟

نظر لها مطولًا وقال بعد تردد بأن ما سيرويه ربما سيريحه، بالرغم من أنه يمثل نقطة طالما كانت

مصدر خجل وقلق كبير في حياته، ومع هذا لم يكن على استعداد، لأسباب كثيرة، مشاركة أحد بما كان يشعر به. قال لها إن زوج عمته عاد من العراق في ليلته الأخيرة من زيارته لهم. وعند منتصف الليل، أو بعد ذلك بقليل، وكان مستغرقا في نومه، أحس أن أحدًا قد تسلل لفراشه واستلقى بجانبه. قال أنه التفت جزعا من الأمر فوجد على بصيص الضوء الذي كان يتسلل من فتحة صغيرة في نافذة الغرفة بزوج عمته ينظر إليه وهو يضع إصبعه على فمه طالبا منه، في صوت يشبه الهمس، بأن يصمت، وأنه لم يستطيع الاستمرار في النوم في غرفة عمته لأن شخيرها أزعجه كثيرًا، وأنه متعب وعادة ما يهرب منها للنوم في سرير ابنهما سعيد الذي يدرس الثانوية في مدرسة داخلية.

تفهم الوضع، واطمئن قليلًا، وأدار وجهه للحائط محاولًا العودة للنوم، ولم تمر إلا لحظات إلا ويد زوج عمته تتسلل لكتفه تجره نحوه، ولكنه قاوم ذلك فزاد الضغط

عليه واقترب منه، فأزال اللحاف وقفز من السرير وطلب من زوج عمته بصوت منخفض أن يخرج من الغرفة فوراً قبل أن يصرخ فنهض الرجل وغادر الغرفه بتثاقل وهو يتمتم بشتائم لم يكن يتوقع سماعها من قريب في مثل سنه، وفضل عدم الرد عليه كي لا يثير غضبه أكثر. وأخبرها كيف بقى جالساً بالفراش حتى الصباح وهو غير قادر أو راغب في النوم خوفا من عودة ذلك الوحش، وكيف أنه كان يشعر بإرهاق شديد ومهانة كبيرة، فلم يكن عمره الغض يسمح بدخوله تجربتين قاسيتين خلال أيام قلائل

تفاهمات

شعرت نوره بالعرق يتصبب من رقبتها وينساب إلى أسفل عمودها الفقري وهي تستمع لاعترافات برهان. أمور لم تكن تعرفها عن رجل عاشت معه سنوات طويلة، ولكنها تذكرت أن في حياتها هي أيضًا اسرارًا صغيرة لم تشارك بها برهان أو غيره. مع ابن جارهم «الحاج تيسير»، الذي تحرش بها أكثر من مرة ولم يتوقف إلا بعد أن حذرته من أنها ستكلم أمها عنه. تذكرت وهي تستمع لاعترافات برهان أن «سعيد»، ابن عمته، يسكن ويدير عملًا جيدًا في مدينة بولدر، بولاية كولورادو، فمدت يدها ومسحت دموعه بلطف، وضمته لصدرها وقالت له مواسية بأن للجميع أسرارهم، وسيأتي يوم تخبره بأسرارها، وإن عليهما الآن بدء حياة جديدة.

هدوءه وصمته شجعتها على أن تقترح عليه أن يذهب لبضعه أيام ويزور ابن عمته، فربما ينجح في التعاون معه.

لم يجب بل بقي صامتًا، فقالت له أنها سوف لن تجبره على فحص دمه، وأن عليهما العودة للبيت، وستذهب بنفسها للمختبر في يوم آخر، فهز رأسه موافقا وهو يمرر كم قميصه القذر على أنفه ليمسح ما علق به من مخاط.

أعدت له وجبة سريعة وجلست بجانبه على طاولة الطعام، وهو أمر لم يقوما بمثله منذ فترة طويلة، وقالت له بصوت يقطر لطفًا وحنانًا، أنها تحبه وتريد له الخير وتتمنى أن يعودا لسابق حياتهما، ولكن عليه البحث عن عمل، أو التفكير جديًا في السفر لدى ابن عمته، فربما يستفيد من البقاء هناك لبضعة أيام أو أسابيع، حتى لو لم يجد عملًا يقبل به، فخبراته متعددة ومطلوبة في أماكن عدة، ولا بأس من التجربة. وأضافت إن تغيير نمط معيشته، ولو قليلا، قد لا يكون أمرًا سيئًا.

كانت صادقة في طلبها، واعتقدت أن هذا سيكون

عاملًا حاسمًا لعودته لحياته الطبيعية، ولما كان عليه. كما إن السفر إلى بولدر سيجبره على تنظيف حالة، وتغيير ملابسه، هذا إن كان يرغب في ركوب سيارة أجرة أو حافلة ركاب سريعة، فما بالك بالسفر بالطائرة، فمختلف إجراءات المطار الأمنية تتطلب أن يغير من حالته. لكن برهان استمر في صمته ولم يعلق على ما اقترحته، وإن بدا مترددًا في قبول عرضها، واعتقدت أن تردده نابع من كراهيته للانتقال من بيئة لأخرى أو لعدم رغبته في تركها، وترك الملاذ الآمن الذي كان البيت يعنيه له. ولكنه نظر لها وكأنه يطمئنها، أو أنه متفق معها، وأن اقتراحها لقى هوى لديه.

قام من مكانه فجأة وخرج من البيت مطبقا الباب وراءه بهدوء، فندمت على اقتراحها فقد كانت، بالرغم من كل شيء، بحاجة له، ليس فقط كزوج وصديق بل وأيضًا كمعيل، فما تكسبه من عملها أصبح بالكاد يكفي حاجات البيت الضرورية، هذا غير سداد ما عليهما

من أقساط تأمين وسيارة وقسط الرهن الشهري للبنك وغيرها من أمور لا تقبل التأجيل.

آدم

جلست نوره واجمة على طرف السرير، وهي تشعر بالوحدة. نظرت لقدميها وخفيها وللسجادة العجمية، والتي ربما كانت تركية، الملقاة تحتها وتذكرت أنها كانت من الأشياء التي عاد بها برهان من بيروت، مع اللوحة التي أحضرها لأبيها، والخفيين المغربيين لوالدتها، في أول مرة يفارقها، وكان ذلك بعد زواجهما بشهرين، عندما ذهب ليجري مقابلة مع شركة أمريكية تبحث عن أصحاب خبرات محددة للعمل في فرع الشركة في بيروت مع إمكانية الانتقال للعمل في أي من فروعها في العالم، بما في ذلك أمريكا، وكيف أن أمله كان كبيرا في أن يقبل طلبه، فقد كانت خبراته لا بأس بها وإنجليزيته جيدة نتيجة دراسته لدى الراهبات.

تتذكر جيدًا أنه كان يرغب في تعليق تلك السجادة الصغيرة على الحائط ولكنها اقنعته بالتخلي عن الفكرة،

لأن والدها يكره ثقب حيطان البيت وتخريب دهانها الأثري القديم وتشويهها بمسامير بشعة تبقى للأبد، ولكنها نجحت في أقناعه بوضعها كديكور على أحد الأرائك، وانتهى الحال بها بعد سنوات لتصبح ممسحة بجانب السرير بعد انتقالهم للعمل والعيش في أمريكا، بلد الأحلام والصدمات، وكانت السجادة الصغيرة من الأشياء القليلة التي أخذوها معهم إلى أمريكا إضافة طبعًا لكتبه، وكانت السجادة من الأشياء القليلة التي عادت بها معها من أمريكا للشام، ولا تعرف حتى تلك اللحظة لماذا؟

عادت نوره إلى فراشها، بعد أن أغلقت الستائر وأطفأت أنوار الغرفة، محاولة العودة للنوم، فالوقت لا يزال مبكرًا، ولكن لم يكن ذلك بالأمر السهل، فلم تكن تشعر بالرغبة في البقاء في الفراش، فغادرته بعد أن صعب عليها أن تغفو، فالمكان أصبح فجأة غريبا عليها، بالرغم من أنه البيت الذي ولدت وعاشت كل حياتها

فيه. تذكرت إن المكان لا يعني ما به من جدران وأسقف وتحف وثريات ولوحات وطنافس وقطع أثرية وحيطان مرمرية وممرات وأحواض وأصص تمتلئ بزهور برية بل بالأرواح التي نحبها. نعم هي تعترف بأنها كانت في البداية تحب برهان، وكانت تنتظر منه، بعد أن تعرفت عليه جيدًا، أو هكذا اعتقدت يومها، أن يطلب يدها من أبيها، بعد أن تكررت لقاءاتهما في المقهى الصغير الذي كان يرتاداه في حي الأرمن. وتتذكر أنها كانت تحب رائحة القهوة في ذلك المكان، ولا تدري لم كانت تفتقد تلك الرائحة بين الفترة والأخرى عندما كانت تعيش في هيوستن، فربما من خلال رائحتها كانت تظهر بصورة خفية اشتياقها لصورة برهان الأولى، فقد كانت تشم رائحة القهوة فيه حتى وهي تمارس الجنس معه.

فكرت أن تذهب لغرفة ابنها «آدم» لتطمئن عليه، بعد أن أصبح يتيما، ولكنها تذكرت أن برهان لم يكن، على أية حال، والده البيولوجي، أو الشرعي، ولكن الصبي لا

يعرف ذلك ولم يحن الوقت لتخبره بحقيقة الأمر، وربما سوف لن تخبره أبدًا أنها قد تبنته في أمريكا، فتعلقها به يزداد يومًا عن يوم، وتشعر بالرعب من فكرة أنه سيتركها ويعود لأمريكا للبحث عن والديه الطبيعيين.

كان المصباح الجانبي في غرفة نومه مضاء، ولكنه كان غارقًا في سبات عميق وصوت أنفاسه المرتفعة يملأ الغرفة بضجيج طالما أحبته، خاصة عندما يكون مستلقيًا على ظهره إلى جانبها.

جلست على الكرسي الوحيد في غرفته وهي تتأمله، وأغمضت عينيها وسرحت بأفكارها مستعيدة تفاصيل بيتهما في هيوستن... ممراته الخشبية الضيقة، وأصبحت تتخيل وهي تسير فيه تخرج من غرفة النوم الرئيسية وتدلف يمينا للمطبخ الصغير ثم تخرج منه للفناء الخلفي حيث ألعاب «آدم» مرمية على العشب الذي تأخرت العناية به، وتركته والبيت وعادت للشام. تذكرت وظيفتها المريحة وما كانت تكسبه من مال، وتشعر

به ثقة بالنفس لأنها كانت تعمل، وكيف أصبح ذلك الراتب بالكاد يكفيها وبرهان بعد أن استقال من عمله. وتذكرت زميلتها في العمل، جوان، الأمريكية الشقراء، التي أصبحت تاليًا رفيقتها، والتي وعدتها بزيارة دمشق يومًا، وهي تودعها باكية في المطار. تذكرت صوت أمها وزغردتها تلعلع من خلال سماعة الهاتف، بعد أن عرفت بقرارها العودة لبيت والديها في الشام... وربما للأبد، ولكن الأم لم تكن تعرف حينها أن ابنتها ستعود لها من غير زوج ولا مال، ومع ابن ليس من رحمها.

نظرت لتقاطيع وجه «آدم»، وتذكرت يوم ذهبت للدائرة المحلية المختصة بالأبناء غير معروفي الوالدين، أو غير معروفي الأب فقط، ووجدت أن الفرق بينهما كبير.

ففي الحالة الأولى تكون شروط التبني أقل تشددا، وتتم حسب أولوية الطلب، وعادة ما تتم الأمور بيسر وسهولة متى ما اقتنعت الإدارة بجدية الطلب وقدرة طالب التبني المادية، وملاءمة ظروفه الاجتماعية لمسئولية

التبني، دون سؤال عن الخلفية الدينية أو العرقية. أما إذا كان الطفل غير معروف الأب فإن الشروط التي تضعها الأم فيمن يرغب أو ترغب أن يتبنى طفلها أو طفلتها عادة ما تكون صعبة. فقد تشترط أن يكون الراغب في التبني عالي التعليم، ودخله جيد، أو أن يكون من خلفية عرقية معينة أو دين محدد.

وردًا على سؤال ورد في نماذج طلب التبني عن أفضلية جنس الطفل الذي ترغب فيه، أجابت دون تردد أنها ترغب في صبي، فقد عانت كفتاة الكثير، ولا تود لطفلها أن يمر بنفس معاناتها. فلا دماء بلوغ حرجة ولا نزيف شهري مصحوب بآلام حادة، ولا قائمة ممنوعات، ولا مشاكل حمل ووحام ولا آلام وضع، ولا حساسية مفرطة مقارنة بقساوة وعدم مبالاة الذكور بشكل عام، وأمور كثيرة أخرى تتعلق بحرية التحرك والسمعة، والميك أب ومشاكل الشعر وغسيلة وتنشيفه.

فكرت نوره يومًا أن تقتني كلبًا أو قطة، ولكن مرورها

بتجربة العناية بكلبة جين الصغيرة لبضعة أيام عندما طلبت منها ذلك لرغبتها في زيارة والدتها في ولاية أخرى، جعلتها تغير رأيها، بالرغم من أن الكلب كان لطيفًا وكان يتبعها أينما ذهبت في البيت، وكيف كان ينام على طرف سريرها ويستيقظ معها، ولكنها اكتشفت أن من الصعب أن يملأ حياتها حيوانًا سيموت أو يمرض حتمًا بعد سنوات قليلة.

تذكرت كيف قضت ساعات طوال وهي تملأ بصبر عجيب نماذج طلب التبني وتجيب على عشرات الأسئلة عنها وعن زوجها وسبب رغبتهما في تبني طفل، ولماذا لم ينجبا، وأن كان الأمر يتعلق بعدم قدرتهما أو أحدهما على الإنجاب. كما تذكرت اضطرارها للحصول على عشرات الشهادات المتعلقة بخلفيتهما الثقافية والتعليمية والدينية. وتذكرت كيف أن غالبية الأمريكيين البيض كانوا يرغبون في تبني طفل ذكر أبيض، وقلة قليلة كانت تود تبني طفلة، وأقل من ذلك لم يكونوا يمانعون في تبني من

لا تخطئ العين أصله، كالأفريقي او الآسيوي أو الجنوب أمريكي، خاصة إن كانت ملامحه تختلف عن ملامح من تبنوه، فآدم، وهذا ما اختارته من اسم له، تغلب عليه ملامح الجيكانو، أو المنحدرين من أصول إسبانية هندية مختلطة من دول جنوب أمريكا. ورفضها له يعني أن عليها الانتظار لفترة طويلة قد تمتد لسنوات، وتذكرت أنها كانت تمر بحالة نفسية سيئة وترغب سريعا في إحداث تغيير ما في حياتها كيلا تنزلق لهاوية الاكتئاب، مع كل الأدوية التي كانت تتناولها، خاصة وأنها كانت تشعر بانتهاء علاقتها ببرهان، ونهاية زواجهما، هذا إن عاد لبيته ولها.

نظرت لتقاطيع «آدم»، على ضوء المصباح الجانبي وأنفه الكبير الذي لا يشبه في شيء أنفها الدقيق، وشفتيه الغليظتين مقارنة بشفتيها. نظرت لعينيه الواسعتين، فقد كانتا أجمل ما فيه، واللتين جذبتاها له. كانتا في تلك اللحظة مغمضتين ولكنها أصبحت تعرف

تفاصيلهما جيدًا... عينين سوداويتين وآسرتين ببؤبؤ شديد البياض، بالرغم من أو ربما بسبب ما يراه الناظر لهما من مسحة حزن عميقة فيهما تفصحان عن حرمان شبه متوارث، أو هكذا ما كانت تريد أن تراه وتعتقده.

تذكرت أنها اصرت على تسميته ب آدم لعدة أسباب، فهو اسم شائع للجميع، ويكتب كما يلفظ في أكثر من لغة تعرفها، وليس للاسم رابط مع ديانة أو مذهب، ولا يدل على هوية صاحبه.

تذكّرَتَ قرارها بترك الحلم الأمريكي والبيت والعمل وجين والسيارة وكل الذكريات، الحلوة والمرة والعودة للشام. وأدركت أن عودتها تعني قطع كل علاقة لها بشيء اسمه «برهان». وتذكرت أنها لم تصل لذلك القرار الصعب إلا بعد أن انتابها اليأس من عودته. ولم تكن على ثقة، إن عاد، بأنه سيقبل بآدم ابنا لهما، بعد أن فقدت كل اتصال به لسنوات، ولم تكن بالفعل تعرف منه أو عنه شيئًا أو تتلقى منه حتى خبر عن طريق صديق، أو حتى

مجرد اتصال هاتفي يقول فيه أنه حي يرزق، ويطلب منها ألا تقلق عليه. وربما لو عاد وخيرها بين بقائه وبين آدم فربما لن تتردد في اختيار الطفل، فمن له إن هي تخلت عنه؟ وحتى بعد أن ترك سابق حياته وراءه في أمريكا، وقرر أن يعود لها في بيتها في دمشق، بعد غياب طال لسنوات، لم تعرف أبدًا منه أين كان كل ذلك الوقت وماذا كان يفعل أو يعمل، عاد لها شخصًا مختلفًا، محطمًا نوعًا ما، ولكنه نجح في أن يحتفظ ببعض من كرامته، بإصراره على الصمت، ورفضه الحديث بتاتًا عما جرى له، وأين كان وماذا كان يفعل وكيف كان يعيش.

نوره والليل

كان الليل يشكل كابوسًا لها، وربما لكل امرأة، ففي الليل فقط تفتقد المرأة الرجل، ولهذا أصبحت نوره تكره الليل، ولم تكن تنسى نفسها إلا في النهار، بالانشغال بالعمل والعودة للبيت وأداء مختلف الأمور ومشاهدة التلفزيون، والعناية بآدم، ولكن في نهاية أي يوم سيكون هناك ليل لا محالة، ليل يحل ليذكرها بخلو فراشها من برهان، من رجل يضمها. لقد خرج بالفعل من حياتها، ولكنه هو الذي خرج، ولم تخرجه هي بإرادتها، فقد كانت أضعف من أن تفعل ذلك بالرغم من أنها طلبت منه أكثر من مرة أن يترك البيت ويغادر حياتها.

كانت تشتاق في ليالي الشتاء خصوصًا أن تستلقي بجانب من تحب، تشتاق لمن يعانقها. لم تكن تفكر بالجنس كثيرًا، فهذا دأب غالبية النساء، بل كانت تبحث عن العناق فهو يعني لها الأمان. الأمان هو الطريق لقلب

المرأة أو القوة التي تبحث عنها دائمًا، فهي تريد أن تكون في كنف رجل لأنه أقدر من بنات جنسها على توفير الأمان والاطمئنان لها.

عندما كانت تشعر بالوحدة، وما أكثر ما كان يأتيها ذلك الشعور، وخاصة قبل الخلود للنوم، كانت تذهب للحمام وتطيل النظر للمرآة ولتقاطيع وجهها وملامحها. كانت ترى أنها لا تزال جميلة بأي مقياس كان، وسبق أن تلقت أكثر من دعوة من زملائها في العمل، لقضاء السهرة معهم أو الذهاب للمسرح أو السينما، بعد أن عرفوا من «جين» أنها تشعر بالوحدة بعد أن هجرها زوجها، وطال غيابه، وربما قامت «جين» بحسن نية، بتحريضهم على دعوتها للعشاء، والسهر معهم أو دعوتها لحفلة راقصة، لإخراجها من شرنقة الوحدة التي فرضتها على نفسها. كانت تعرف أن جمالها لا يزال يجذب الرجال لها، ولكنها لم تكن مستعدة نفسيًا للبدء بأية علاقة، ولم تكن تود أن تسير خطوة في أية علاقة لتتراجع عنها خطوات.

كانت تفكر أحيانًا في الذهاب وقضاء بعض الوقت في بار مركز التسوق القريب، ولكن ما أن تأخذ قرارها وتبدأ بتبديل ملابسها، حتى تحتار فيما يجب اختياره من ملابس، فإن كانت محتشمة جدًا فقد لا يشجع ذلك الرجال للنظر لها وإطراء جمالها، والاقتراب منها وتجاذب الحديث معها. وإن ارتدت المثير من الملابس التي تبرز مفاتنها فقد يرى بعضهم في ذلك تشجيعًا أو دعوة للاقتراب منها أكثر وتبادل الحديث معها، وربما الطمع فيها. كانت تلك الحيرة تكفي غالبًا لدفعها لتغيير رأيها واختيار البقاء في البيت.

كانت جين وزوجها، الذين يزيد وزناهما معا عن المائتي كيلوغرام، يزورانها أحيانًا، وكانت تجد متعة في الجلوس معهما، فقد كان الزوج شخصًا مرحًا، مثل غالبية ثقيلي الوزن في أمريكا، وربما العالم، ولكن الطريقة التي كان يعب فيها ما كان يجده في برادها من علب البيرة، كان يقلقها، خاصة مع تزايد التزاماتها المالية، وبقاء

دخلها كما هو.

طال الوقت بها وهي وحيدة، وضاقت حلقتها الاجتماعية أكثر مع الضيق المالي الذي اصبحت تعانيه. لم يكن بإمكانها بيع السيارة، فهي وسيلتها الوحيدة للانتقال والذهاب للعمل، فهذه بلاد مترامية الأطراف لا تتوفر فيها وسائل نقل عامة. كما كان لزامًا عليها الاستمرار في دفع قسط البيت الشهري سدادًا لمبلغ القرض الذي حصل عليه برهان من البنك مقابل رهن البيت، وكان مبلغ القسط يستنزفها ماديا.

فكرت كثيرًا في بيع بيتها والانتقال للسكن في شقة صغيرة قريبة من مكان عملها، فهذا سيتيح لها أيضًا التخلص من السيارة ومن تكاليف وقودها وصيانتها، ولكن كيف لها أن تفعل ذلك والبيت باسمهما المشترك.

لجأت لمدير البنك لعله يدلها حلًا، وشرحت له وضعها وظروفها، ولكنه أكد لها أن ليس أمامها أي حل غير وجود زوجها أو أن يعطيها وكالة بالتصرف بالنيابة

عنه، ولكن أين لها أن تجد زوجها المجنون الذي هجرها ربما للأبد لكي يعطيها تلك الأوراق أو الوكالات؟!

الوضع المادي الذي كانت تمر به، وزيادة مصاريف البيت نتيجة زيادة العدد مع قدوم «آدم»، وشوق أمها لرؤيتها وشوقها الأكثر لها، ويقينها بأنها عاجلًا أو آجلًا سوف لن يكون باستطاعتها الاستمرار في تحمل أعباء حياتها في أمريكا، وكل هذه الأمور وغيرها عجلت في اتخاذها قرار العودة للشام، للوطن، الذي لم تغادر تفاصيله وذكرياته وروائح طبخات أمها، وما كانت تجده من دفء إنساني فيمن كانوا حولها، مخيلتها يومًا.

العلاقة الجديدة في الشام

تأقلمت نوره مع حياتها الجديدة، القديمة، في دمشق، أو الشام كما يحب السوريين اختزال اسم دولتهم في اسم مدينتهم العتيقة، وانشغلت جزئيًا بتربية ابنها «آدم» وتعليمه الكلمات العربية وهذا أشغلها مؤقتًا عن كل آلامها النفسية وسابق هواجسها وحياتها في أمريكا والبيت الذي تركته، بعد أن اتفقت مع المدير على قيام البنك ببيعه في المزاد، فور إنهاء إجراءات الحجز القانونية عليه نتيجة التأخر عن سداد الأقساط، وفي حال وجود فائض من ثمنه، بعد سداد القرض، وهذا ما توقعته، فإنهم سيقومون بتحويل نصيبها، أو نصف المبلغ لحسابها معهم، لتتصرف به تاليًا بالطريقة التي تراها مناسبة. كما أن البنك سيقوم بالاحتفاظ بالنصف الآخر في حساب برهان لديهم لحين عودته، أو ظهوره. ولكن لم يصلها من البنك أي شيء أو إشعار بما حصل.

كانت تشعر بجفاف عاطفي في حياتها، وكانت تشعر ببعض الميل ل«يونان» شريك والدها العراقي الأشوري المهاجر، الذي أصبح ساعده الأيمن في الصيدلية، أو ربما أصبح شريكه، حيث لم تكن تعرف طبيعة العلاقة بينهما، فوالدها نادرًا ما يتكلم عن عمله.

كان يونان ينظر لها بطريقة تعرفها بعض النساء جيدًا. فأحيانًا تكون النظرة رغبة وأحيانًا بها احترام، وغالبًا مجرد تودد وطلب القرب. بدأ تودد يونان جليًا عندما التقيا على العشاء في بيت عمها، وجاء جلوسها بجانبه. اشتكت له من كميات الأقراص التي تتناولها كل يوم، وتأثيراتها الجانبية عليها، وسألته عن أفضل طريقة للتخلص منها. فقال لها أن الأمر ليس بتلك السهولة، ولكنه سيساعدها حتمًا في التقليل منها بصورة تدريجية إلى أن تتوقف عن تناولها تمامًا، وأنه بحاجة لأن يلتقي بها ليشرح لها الأمر بعد أن يطلع على نوعية الأدوية التي وصفتها له، وكيف أنه سيشرح لها كيفية وضع

برنامج زمني لتقليل تناولها.

كان اللقاء حاسمًا في عدة نواح، فقد اقتنعت كثيرًا بما اقترحه، ولمست مفعوله خلال فترة قصيرة. كما توطدت علاقتها بيونان، الذي طلب مقابلتها ثانية للتيقن من أنها تسير حسب البرنامج الذي وضعه، وكانا يعملان إن التيقن من برنامج العلاج لم يكن أكثر من عذر لأن يلتقيا، وكانا سعيدين بذلك، فقد كان كلاهما بحاجة لمن يقف بجانبه ويملأ الفراغ العاطفي في حياته.

عندما التقت به لأول مرة اعتقدت من النظر لتقاطيعه، أنه يصغرها بسنتين أو ثلاث. كان يبدو أصغر من ذلك، فنضج حديثه وصوته العميق جعلها تضيف بضع سنوات على عمره. فارق السن دفعها لأن تتحدث معه بكل حرية، متشجعة أيضًا بجرأته في الحديث، وكونه أعزب ويمتاز بملامح مريحة، فلون عينيه الرماديتين الغريبتين كانت تجذبانها. كما كان له أنف دقيق وجبهته عريضة وبشرة نظرة، مع بعض الكلف الجميل على الأجزاء الظاهرة من

صدره، وشعره الأجعد المائل للاحمرار.

كانت سعيدة بلقائه. كانا يلتقيان بين الفترة والأخرى في مطعم أحد الفنادق. ومن المطعم جاءت الدعوة لاستخدام أحد غرفه، لكي يبتعدا عن أعين الفضوليين. وهكذا تطورت العلاقة، ولكنها بقيت في إطارها السري، فهي لا تزال زوجة برهان، الذي لا تعرف عنه شيئًا، وبالتالي حرصت على التمسك بالحد الأدنى من الحرية، وتجنب اللقاء في نفس فندق لأكثر من مرة أو مرتين.

كانت حيويته واللهفة التي يبديها كلما التقيا تعوضان كثيرًا من آلامها وإحباطها من الهجر والإهمال الذي تعرضت له، والذي مثل إهانة لأنوثتها قبل إنسانيتها، ووجدت في علاقتها بيونان الاهتمام الذي كانت تبحث عنه كامرأة ذات جمال في طريقه للذبول إن لم تسارع في الاستمتاع به. وبالتالي كان ليونان دور حاسم، كصيدلي وعشيق وصديق، في التخفيف من المشاعر التي كانت تكتنفها نتيجة تقدمها في العمر، الذي أصبح مع مرور

الوقت متسارعا بصورة تدعو للقلق. كما كانت تشعر أحيانًا أنها ستسمع أخبارًا غير سارة عن برهان، وكانت بحاجة لمن يقف بجانبها في تلك اللحظات، ويعوضها عن كل شيء.

عودة برهان

حدسها أو شعورها بأن خبرا ما ستسمعه قريبًا عن برهان كان في محله، ولكنه لم يكن الشيء الذي كانت تأمل أو تتوقع سماعه، ليس بتلك الصورة ولا بتلك السرعة.

كانت عائدة للتو من لقاء حميم مع يونان، والنشوة لا تزال تسكن جسدها. انتهت من أخذ حمامها المعتاد، وجلست في زاويتها المفضلة لتشاهد التلفزيون. صوت رنين الهاتف العالي والمفاجئ بجانبها جعلها تقفز من مكانها وكأن شيئًا وخز قلبها. فوجئت بصوت برهان شبه الهامس يأتي على الطرف الآخر من الخط. سكتت عندما قالت «ألو» فرد عليها، بعد أن عرف صوتها، قائلا: أنا برهان يا نوره!

بالرغم من أن المكالمة كانت مفاجأة وغير متوقعه، إلا أن الصوت الخفي الذي كانت تسمعه في داخلها منذ

فترة والذي كان ينبؤها بأنها ستسمع شيئًا منه أو عنه خفف من أثر الصدمة أو المفاجأة عليها كثيرًا، ولكنها مع هذا أحست بخدر وعدم قدرة على النطق، وبشعور يشل كيانها، ويفقدها القدرة على التفكير، فكأن صوت برهان آت من المجهول، من فتحات قبر لا تعرف مكانه.

جاء صوته عبر الهاتف بعد أن استقر قرارها وفكرها في اليوم نفسه الذي قررت فيه أن تعطي قلبها وعقلها ليونان، بعد أن أعطته جسدها، ولكي تزيل صورة وذكرى برهان تمامًا من ذهنها وحياتها، وتعتبره وكأنه لم يكن، بعد أن أقنعت نفسها أنه ميت لا محالة، أو ربما بدأ حياة جديدة في مكان ما في أمريكا، أو أودع السجن لاقترافه جريمة ما، أو ينتظر الموت على سرير قذر في مصح ناء خاص بالمشردين. كانت تتوق بالفعل لبدء حياة جديدة مع يونان والاستقرار معه، خاصة بعد أن انتقلتا للعيش، مؤقتًا وسرًا، في شقة نصف مفروشة، وبعد أن أخبرت والدتها بعلاقتها به.

تذكرت بدقة كيف ألقى برهان التحية عليها داعيًا لها بالخير كعادته في الأيام الخوالي. أخبرها أنه مضطر لجعل المكالمة قصيرة، وسيشرح لها السبب عندما يلتقيا، وأنه سيعود لها ولسوريا خلال ساعات، وأن طائرته ستقلع من نيويورك باتجاه دمشق.

لم تشعر، وهي تسمع صوته لا بالفرح ولا بالحزن، فقد بدت الجمل القليلة التي سمعتها، والتي كانت بالكاد تصل لأذنيها، وكأنها خالية تمامًا من أي طعم أو شعور بالمعرفة والألفة، بل أقرب لصوت جثة تتكلم، مع شعور بالخدر وخيبة الأمل يغشيان روحها.

كانت لا تزال تتذكر ذلك اليوم الكئيب الذي غادر فيه البيت. اعتقدت حينها أنه سيعود ولو بعد حين، ولكنه لم يعد ولم يتصل ولم يفعل شيئًا حتى للاطمئنان عليها، كل هذا جعلها تشعر فجأة بغضب شديد، وبالرغبة في أن تعيد السماعة لمكانها وتنهي المكالمة، رافضة الاستمرار في سماع صوته الغريب، وأن دورها قد جاء

للانتقام منه وقطع الاتصال والصلة به كما فعل بها، ورفض فكرة عودته والطلب منه البقاء حيث هو، ولكن روح المرأة الشرقية، وما تبقى في ثنايا جسدها من ذكرى، وصوت بداخلها دفعها لرفض التصرف بغير الطريقة التي تصرفت بها. صوتها الداخلي تغلب على كل الأفكار السلبية التي كانت تدور برأسها في تلك اللحظة، عن يونان وابنها آدم وحياتها ومستقبلها، وكل ما سبق وأن فكرت به أو دار ببالها من جُمل كانت ستسمعه إياها إن عاد إليها أو اتصل. كانت سترفض أن تكلمه، وألا تقبل مطلقًا فكرة عودته لها. ولكنها عوضًا عن كل ذلك رفضت حتى فكرة تأنيبه على ما فعله بها، بل استسلمت لطلبه وقالت له أنها، وآدم، سيكونان بانتظاره في المطار، وأغلقت الخط بعد أن عرفت منه تفاصيل رحلته، دون ان تشرح له من يكون آدم، أو تترك له فرصة السؤال عمن يكون!

تعلمت نوره من أبيها وهي صغيرة درسًا. كانت في

صغرها عنيدة وسيئة في شجارها مع صديقاتها. كانت تبالغ في قسوتها مع صديقتها زينب، ابنة الجيران، وتطردها أحيانًا من البيت، ولكن زينب كانت تعود لها في كل مرة. وفي يوم قال لها والدها: إن صديقتك صبية رائعة، ويجب أن تبادليها الحب، فهي تسامحك دائمًا، والشخص الذي يسامحك يحبك، ولا يود خسارتك، فلا تتمادي في الإساءة إليها. هكذا شعرت بأن برهان ربما اكتشف أنه تمادى كثيرًا في غيه، أو سوء تصرفه، ويريد أن يعود لها... نادمًا، فلم تستطع بالتالي أن تغلق الباب في وجهه بالرغم من كل شيء، وبالرغم من كل ما فعله معها وبها.

الصندوق المعدني

تذكرت نوره فجأة، وهي سارحة في أفكارها وسابق ذكرياتها عن برهان ويونان وآدم، الصندوق المعدني الذي أحضره برهان معه، بعد أن عاد من أمريكا. سنتان منذ أن عاد وهو لا يود فتحه، أو حتى اطلاعها عما بداخله، بل طلب منها عدم فتحه، ومنع أي كان الاقتراب منه. كان القفل الذي عليه كبير الحجم بشكل مضحك مقارنة بحجم الصندوق نفسه. كانت تتفهم رغبته فقد كان دائمًا مولعًا بالمفاتيح والأقفال التي يضعها حتى على بعض خزائن المطبخ التي لم تكن تحتوي على شيء يذكر، وكانت تستغرب دائمًا عندما لا تجد في بعض الأماكن المغلقة التي يقوم بفتحها أمامها خلوها من أي شيء أو وجود أشياء غير ذات قيمة بها، ولكن ربما يكون الأمر مختلفًا هذه المرة.

نهضت من على المقعد الوثير، وأطفأت المصباح

الصغير، وغادرت غرفة ابنها مغلقة الباب بهدوء خلفها، واتجهت لصندوق برهان المعدني وأمسكت بالقفل الكبير بيديها وجذبته نحوها ولكنه بدا عصيًا لا يسهل خلعه، وإن حاولت بذل جهد أكبر في كسره فستوقظ الضجة أبيها وأمها، وقبل ذلك آدم.

كان فضول الأنثى يأكلها من الداخل. فكرت أن مفتاح القفل قد يكون في خزانة ملابسه أو في جيب أحد أرديته، فقد كان مولعًا بتوزيع المفاتيح في أماكن سرية لا يعرفها أحد غيره، حتى عندما كانوا يعيشون في أمريكا كانت لديه خريطة مشفرة تبين مكان كل مفتاح وأي قفل يفتح. كان يدون الرقم الرباعي السري لبعض الأقفال الرقمية بطريقة لا يعرفها أحد غيره.

قضت الساعات الأولى من الصباح وهي تبحث في كل زوايا وجوارير خزائن غرفة النوم وجيوب ملابسه، وفوق الخزائن، وحتى فوق شفرات مروحة السقف، فقد رأته يومًا يتسلق سلمًا ليلصق عددًا من المفاتيح فوق

شفراتها بشريط لاصق لكيلا تقع إن دارت المروحة. كما كان يلصقها خلف اللوحات المعلقة على الحائط، ولكنها لم تجد غير بضع مفاتيح غير صالحة لفتح ذلك القفل اللعين، واستقر رأيها في النهاية على كسره بطريقة ما، ولكن ليس قبل أن يصحوا الجميع من النوم، ويترك والدها البيت، فهي لا تريد أن تبدو أمامه وكأنها أرملة تبحث في أسرار ما تبقى من أمتعة زوجها الراحل.

وفي الصباح، ما إن أغلق والدها الباب خلفه، وهو خارج للذهاب للمقهى القريب، كعادته في أيام الجُمع، حيث كان يستمتع بالجلوس فيه للعب الطاولة والالتقاء بأصحابه قبل العودة للبيت مبكرًا حال ذهاب غالبية أصحابه لأداء صلاة الجمعة.

كما كانت أمها تخرج أيضًا صباح كل يوم تقريبًا لتجلس مع جارتها في شرفة بيتها لتناول القهوة، وتبادل أسرار الحي والاستماع لآخر الإشاعات وأجمل النمائم.

خلا البيت لها، وانتظرت انشغال آدم بألعابه لتهرول

للمطبخ وتعود بمفك براغ ومطرقة، وخلال ثوان كان القفل في خبر كان. لم تجرؤ فورًا على فتح غطاء الصندوق لرؤية ما بداخله، بل رفعته قليلًا بيد ومدت الأخرى بحذر تتلمس ما به، فشعرت بأصابعها تصطدم بكومة أوراق وقطعة قماش، ولكنها لم تطق صبرا فرفعت الغطاء فوجدت مجموعة كبيرة من الأوراق عليها كتابات بالقلم الرصاص، مربوطة بعناية بخيط من البلاستيك الذي يستخدم في صيد السمك، ولا تتذكر أنها شاهدت يومًا في عملها كسكرتيرة من يربط الأوراق بمثل ذلك الرباط الغريب. وقعت عيناها على عجلة عربة، كالتي تستخدم في محال السوبرماركت، وبضع قطع نقدية من العملة الأمريكية، ومحفظة قديمة مهترئة تمامًا، فتحت المحفظة فلم تجد بداخلها شيئًا غير بضعة قطع نقدية، ولاحظت أن جانبًا من المحفظة قد تم خياطته بطريقة بدائية، ففكت الخياط بطريقة عصبية ومدت أصابعها في داخل التجويف الجلدي، وخرجت أصابعها

وهي تحمل بضعة أوراق بنكنوت شبه متقطعة، تبين من عددها أنها تبلغ 300 دولار. كما وجدت قميصين من قماش الجينز المتخشب، وزوجين من البناطيل الممزقة التي تآكل قماشها بسبب القدم ومن نفس نوع قماش القميصين.

قامت بتفتيش جيوب قطعتي الملابس فلم تجد فيها غير آثار تبغ وعلبه علك، ومقص أضافر صغير موضوع بعناية في كيس نايلون يبدو الصدأ على أطرافه، وفرشاة أسنان مستعملة... ولا شيء غير ذلك.

وضعت الدولارات في صدريتها، وحملت لفة الأوراق وذهبت بها للمطبخ وكومتها فوق طاولة الطعام، فسقطت منها ورقة ذات لون أزرق باهت، دونت عليها الكلمات القليلة التالية:

أكلمك ولكنك لا تردي أسألك فلا تجيبي أهز أكتافك فلا تكترثي أخاطبك فلا تسمعي، أنظر لعينيك فلا أرى إلا محيطا من الدموع التي تسبح بها آلاف التساؤلات

وأنا أبحث في لجها عن آلاف الإجابات.

من أنت، من تكوني وكيف اخترقت جدران حياتي، وهززت مرجوحة أفكاري الرتيبة وأشعلت النار بداخلي؟ لقد تغيرت أنا ولكني عجزت أن أغيرك أو أجعلك على شاكلتي!!

لم تفهم شيئًا أو معنى لما قرأت، ولكنها تذكرت ما انتهى عليه نقاشها مع برهان في اليوم الذي طلبت منه ان يرافقها لمختبر فحص الدم، واعترافه لها بما حدث له مع المرأة اليونانية، وكيف أنه قبل أخيرًا، وإن على مضض الذهاب إلى بولدر والإقامة هناك لفترة مع ابن عمته، وكيف أعلمها بطريقة غير مباشرة بحاجته إلى مبلغ لشراء تذكرة السفر، وتدبير أموره لحين إيجاد عمل ما، وكيف تركته وذهبت لغرفة نومها وعادت حاملة 300 دولار بيدها وهي تقول له إن كل ما لديها هو 600 دولار وستتقاسم المبلغ معه. رأت شبه لمعان في عينيه، وربما كانت بداية دموع ولكن ربما قاوم سقوطها.

طلبت منه أن ينتظرها، ذهبت لغرفة النوم وعادت وهي تحمل حقيبة يد صغيرة وضعت بها بعض ما سيكون بحاجة له من ملابس خارجية وداخلية وسترة مقاومة لطقس بولدر البارد. كما وضعت بداخلها مقص أضافر وفرشاة ومعجون أسنان، وعدة الحلاقة.

تذكرت أنه تجنب النظر في عينيها وأخذ الحقيبة منها وخفض رأسه، وكأنه يشعر بالخجل من تصرفه، واستدار خارجًا من البيت دون أن ينطق بكلمة أو يودعها حتى بهزة من يديه، وأغلق الباب خلفه ليختفي من حياتها، وكأنها لم تكن يومًا حبيبته ورفيقة دربه وشريكته في كل شيء.

خروجه الذي فاجأها بهدوئه أو بالأحرى سرعته وخلوه من أي شجار ساعدها في عدم الشعور بالندم أو بالفراغ، بل أحست براحة وببعض الأمل في أن يجد عملًا أو يساعده السفر على التغيير، فأي وضع لا شك سيكون أفضل من الحالة التي كان عليها.

تذكرت نوره كيف خرجت في صباح اليوم التالي لعملها، وعند باب سيارتها وجدت الحقيبة اليدوية الصغيرة التي أعطتها لبرهان في الليلة الماضية مرمية تحت باب سيارتها، وقد علق بأحد أطرافها كومة مفاتيح، فتسارعت دقات قلبها لرؤيتها، فهذه المرة الأولى التي يترك فيها برهان مفاتيحه خلفه مرمية بلا اكتراث، وبعيدًا عن ناظره، وكيف تسارعت دقات قلبها تتسارع، وهي تحاول أن تقنع نفسها أنه ربما نسيها، ولكن كيف نسي حقيبة ملابسه، وأين اختفى؟

وضعت شريط أفكارها جانبًا، وعادت لقراءة كومة الأوراق أمامها فقد تجد فيها إجابات على عشرات التساؤلات التي أتعبتها، دون أن تجد لأي منها إجابة شافية، والتي كانت تدور وتدور في رأسها منذ سنوات طويلة.

أمسكت بالورقة الأولى منها بيدين مرتجفتين، وهي تمني النفس في أن تجد ما يشفي غليلها، فقد تعبت

من عدم تلقى الإجابات على تساؤلاتها، وهذا التعب والمعاناة بقيت معها حتى بعد أن عاد برهان للشام ولها ولبيتها، واختار الصمت، القاتل للفضول.

وفي محاولة لتجميع أفكارها، بحلقت في كلمات السطر الأول من الأوراق ومحاولة قراءة ما دونه برهان، فهذا خطه الذي تعرفه جيدًا.

ملاحظات

نوره، يا نور حياتي، يا أكثر من ظلمتُ في الدنيا قبل.... مماتي!!

لا تستغربي قراءة هذه الجملة، فأنا أعلم أنك تعتقدين أن ما بيننا من مشاعر زوجيه أو إنسانية قد اختفت تمامًا، ولكني سأحاول من خلال هذه الأوراق أن أشرح لك ما مررت به وما دفعني للقيام بما قمت به. هذه أوراق دونت بها ذكرياتي وخواطري دون ترتيب ولا تحمل أية ورقة تاريخ كتابتها، لأني لم أكن أصلًا، خلال سنوات تشردي، أعرف الأيام أو السنين أو تعني لي شيئًا.

لم أكتب هذه الأوراق لأطلعك عليها، أبدًا، بالرغم من أنني كنت اشعر بداخلي أنني أكتبها لك، ولك الحق في أن تفعلي بها ما تشائي، فهي، أولًا وأخيرًا، خواطر متشرد. ولكن يجب أن تعرفي أنك كنت في بالي مع كل كلمة وكل سطر وكل خاطرة كتبتها!

كنت أكتب خواطري لنفسي وكنت أشعر أني سأتلفها أو أحرقها يومًا. ولكن عندما قررت أخذها معي إلى سوريا، وهي داخل الصندوق المعدني، شعرت بأنني سأحتفظ بها لفترة ما، فإن طالت حياتي أكثر ورحلت أنت قبلي فسأقوم بحرقها، مع أشيائك الخاصة الأخرى، كي لا أدع أحدًا يقرأ ما كُتب لك أصلًا. وإن جاء أجلي ومت قبلك فلك أن تطلعي عليها، وتقرئيها، فلن أكون حينها أمامك لأرى دموعك، وأسمع نحيبك، وأتقطع داخليًا من عتابك، وأتألم من ضربات يديك على صدري... مؤنبة متسائلة عن سبب طيشي وغبائي وقلة حيلتي وهوان حالي.

لقد قمت اثناء الرحلة الطويلة إلى الشام بإضافة بعض الأفكار والتساؤلات على هذه الأوراق وسوف لن تفوتك حتما ملاحظة ذلك.

الدهشة

شعرت نوره بالوجوم وهي تقرأ ما كتبه برهان، المرحوم برهان. لم تكن تعلم أنه كان يكن لها كل تلك المشاعر، حتى في أيام تشرده. حيرتها أفكاره، وحيرتها أكثر ما قرأته من أنه كتب هذه الخواطر لها، ولكنه مع هذا لم يخبرها بها ولم يطلب منها مثلًا أن تحرص على فتح الصندوق قبل أن يخرج آخر أنفاسه، ويسلم روحه. كانت تمسك بيده وتنظر في عينيه ولم تظهر عليه أية رغبة في قول أية كلمة، بل اكتفى بوضع إصبعيه على شفتيه الباهتتين ونقلهما لشفتيها.

تسارعت دقات قلبها توجسًا مما ستقرأ في بقية الأوراق، وخالجها شعور بالندم لأنها فتحت الصندوق. فربما كان برهان سيتلف ما كتب لو أتيحت الفرصة له للعودة للبيت من المستشفى بصحة أفضل، ولكن ما سبق أن أصيب به من تلف رئوي من سنوات التشرد لم

يمهله، ولم يسمح له ربما بتنفيذ ما كان ينوي القيام به، ولهذا لم يلفت نظرها للمذكرات.

فكرت نوره في أن تتوقف عن قراءة بقية الأوراق وأن تتخلص من الصندوق وما به، مع ما تبقى من ملابس وأمتعة برهان الشخصية التي لا قيمة لها، من بعده. ولكنها قررت تأجيل اتخاذ القرار النهائي لليوم التالي فقد أصبحت فجأة تشعر بإرهاق نفسي وجسدي لا يطاق.

ولكن الفضول دفعها بعد ساعات قليلة للعودة للأوراق لتكمل ما بدأت بقراءته.

برهان

لا أعرف حتى اليوم لم قبلت بي زوجًا. كان بإمكانك، بما كنت عليه من جمال وتأهيل دراسي، وما كانت تتمتع به أسرتك من وضع اجتماعي معقول، كان بإمكانك أن تحصلي، بطريق الزواج والمصاهرة الكلاسيكية على زوج أفضل مني، بمقاييس مجتمعاتنا. وأعتقد، أو ربما أنا متيقن الآن، أنك ندمت مبكرًا على قرارك القبول بي زوجًا، وكان يجب أن تتراجعي، أو ترفضي طلبي يوم لم أُبد أي اعتراض على شرط والديك السكن معكم في نفس البيت، بدلًا من العيش في بيت مستقل، كما كنت تطلبين، ولم أبد يومًا معارضة لرغبتك، وهذا في الحقيقة ما كان يدور في بالي حينها، أو أنوي القيام به، وكما كان يجب أن أفعل، وكما كنت ربما تتوقعين بعد كل الذي كنت أقوله عن حبي ورغبتي في ألا أدع أحدًا غيرك يتحكم في حياتنا. كما أن بيت أسرتي بعد وفاة أبي وأمي كان

شبه خال ولم يكن يسكنه غير أخي الأصغر، والوحيد. ربما لم يكن بيت أسرتي لائقًا بما يكفي وبعيدًا نوعًا ما عن عملي وبيت عائلتك، ولكن وضعنا الأسري كان سيكون حتمًا طبيعيا أكثر، وحتمًا أيضًا أكثر صعوبة لك لاضطرارك القيام بكل أعمال البيت، بدلًا من الاعتماد على والدتك، وخادمتها، وبعيدًا عما يعنيه «صهر البيت» من خضوع الزوج للزوجة وأهلها كونه يعيش في كنفهم وتحت رعايتهم. ولكن يبدو أن حبك لي جعلك لا ترين الجانب السيء مني، أو ربما تغلبت عليك مشاعر العزة بالإثم، فلم ترغبي أن تظهري وكأنك على خطأ أمام أبيك، الذي لم يقبل بي صهرًا إلا بعد تردد وبعد شديد إلحاح أمك، ذات التأثير القوي في البيت.

لقد أحببتك بصدق وكنت أستمتع بالجلوس إلى جوارك، وكان هذا الاستمتاع هو الشيء الوحيد الذي كنت افتقده، بعد أن هجرتك وبيتنا في هيوستن.

أشعر أحيانًا بالعجز، ولم أستطع طوال فترة تشردي

مغالبة الرغبة في التفكير بك، أو انتشال نفسي من تأنيب الضمير، بعد أن حطمت أحلامك وأحلامي وصرت أبحث بين الحطام عن شيء يسعدني ويعوضني عما فقدت. ربما أحببتك أكثر مما يجب، فأردت أن أفعل شيئًا من أجلك، وهذا ما أوقعني في سوء أفعالي وسيء تصرفاتي، وخلق شرخًا في نفسيتي ربما سيبقى معي إلى الأبد، والشروخ النفسية يطول عادة التئامها.

لقد حاولت كثيرًا أن أبدأ معك من جديد، بصفحة لا خرابيش فيها ولا شخبطات ولا شطحات خيال، ولكن الشرخ الداخلي كان يمنع ذلك، وكان عجزي النفسي والمادي عن فعل شيء ملموس وحيوي يؤلمني. لقد هجرتك ليس لحضن امرأة أخرى أو بيت أكثر اتساعًا، أو حتى لمستقبل مختلف وأفضل، بل تركتك لأن ذلك كان الشيء الوحيد الذي كنت قادرًا على القيام به في تلك الأيام، أو في تلك اللحظات، أو ربما لأن قراري بهجرك وهجر عالمي كان سيتيح لي أن أكون ما كنت

أود أن أكونه، أن أكون مع نفسي لأمد لم أكن أود لأحد أن يحدده لي، ربما لأنني كنت عاجزًا عن تحديده.

كتبت أحداث وخواطر هذه الأوراق إما يوم وقوعها أو التفكير بها، أو بعد فترة من ذلك، معتمدًا على ما يتبقى عالقًا منها بذاكرتي عندما أمسك الورقة والقلم. وكل ما لم أكتبه أو أتطرق إليها هو إما لم يكن ذا أهمية بالنسبة لي، أو لم يعلق بذهني لسبب أو لآخر، وعليه هذه ليست مذكرات يومية، فلم أتبع أي تسلسل في كتابة أحداثها أو أسلوبًا محددًا في سردها، بل هي أقرب للاعترافات الحسنة والسيئة، التي تذكرني باعترافات بعض المشاهير التي سبق وأن اطلعت عليها من خلال قراءاتي.

كانت بداية تفكيري في كتابة هذه المذكرات أو الخواطر بعد بضعة أشهر من ترك البيت وكل شيء ورائي والتعلق بلا شيء، لا هدف ولا غاية ولا قرار، ولا عمل... فقط لكي أعيش بلا مسئوليات ولا أصدقاء

ولا التزامات، وألا أكون مضطرًا للخضوع لأي كان لحاجة أريدها منه. وألا أكترث بأية سلطة كانت، دينية، مدنية أو عسكرية أو حتى قضائية، فالمشردون عمومًا يطاردون وينبذون ولكن لا يحاسبون. وبالتالي لم يكترث أحد بسؤالي عن شيء، أي شيء ولم أكن أمتلك او أرغب في الإجابة عن أي سؤال ولم يتوقع أحد مني أي تفسير أو تبرير.

أصبحت مع الوقت مشردًا بكامل حريتي واختياري، وهذا ما فرقني عمن عرفت أو التقيت بهم من مشردين. فقد تبين لي أن الغالبية أجبرتهم ظروف الحياة الصعبة على اتباع سبل التشرد، وليس باختيار منهم.

قررت أن أكون مشردًا لأني سئمت حياتي، فقد كنت أرغب في أن أصبح حرًا، دون ارتباط بشيء ومع أي كان. كنت أرغب في أن أعيش اللحظة ولا أعبأ بما سيأتي به الغد، أو حتى في الدقيقة التالية، أو أكترث بما بعد ذلك. أرجو أن تعيدي قراءة هذه الفقرة فهي تفسر بدقة

ما كان يجول بخاطري أيامها.

كما أنني تشردت لأسباب غير مهمة أخرى. فقد سئمت من زيارات الأصدقاء والأقارب، وخاصة ثقيلي الدم منهم، واصطناع الابتسامات والرد بأدب على سخيف الأسئلة والقيام مضطرًا بمختلف حركات المجاملة ممن لا يستحقون، حتى الاستماع لهم. سئمت المجتمع بكامله، بما فيه من فواتير وحسابات ومواعيد أطباء، وكشوف بنك، والتيقن من أنني دفعت قسط تأمين الحياة، والتأكد من دفع قسط تأمين البيت وقسط السيارة والأقساط الأخرى. سئمت من كل الالتزامات اليومية التي لا تنتهي، والمراجعات التي يبدو لها نهاية، وإن بدت النهاية فلكي تبدأ من جديد.

ضقت ذرعًا بزميلتك، أو التي تسميها صديقتك جين، وصوتها الحاد، وزوجها الذي كنت أسميه، بيني وبين نفسي بالفيل. كان يتصنع المرح وكان وجودهما يسرك، وتضحكين عاليًا لنكاتهم التي كنت أجدها سخيفة. كما

كنت أتضايق كثيرًا من تعليقات جين بخصوص الإسراع في إنجاب طفل، وكان هذا الفضول التدخل في شئوننا وخصوصياتنا يزعجني كثيرًا، وكانت قصصها تحيرني، وتذكرني بأحاديث عجائز سوريا، وعلى رأسهم في السخف خالتي أم أديب.

مايكل

بقيت وحيدا في تشردي، وهذا هو الوضع الطبيعي إلى أن التقيت ب»مايكل»، الذي أصبح شريكي في التشرد طوال الفترة التي تبعت لقائي به حتى ليلية عودتي لسوريا.

لا أدري إن كانت هناك شراكة أو صداقة في التشرد، فهذا يضع على المتشرد التزاما ما، والمتشرد لم يهرب من شيء بقدر هروبه من أي التزام ومن أي ارتباط كان.

لمايكل الفضل الأول في كتابة هذه المذكرات، فقد انتبه أو لاحظ يوماً ميولي الأدبية، إن جازت التسمية أو الوصف، فطلب مني تنميتها. كنت أصف أشياء كثيرة بطريقة تثير انتباهه وأعجابه. كنت ألقي نثرًا بسلاسة وكان مايكل يسمعه ويصفه بالشعر، وحثني على أن أكتب ما يخطر على بالي، أن أكتب أي شيء، فالأفكار كثيرة والوقت للكتابة والصمت والكلام أكثر من أي شيء

نمتلكه، ولا شيء في الحياة ينتظرنا.

أشار مايكل إلى أصابعي وإلى أظافري المشذبة وقال بأنني أملك أنامل عازف بيانو أو كاتب، ومد يديه مقارنًا أظافره التي تجمعت الأوساخ تحتها، والتي بدت كالمواسير المعدنية السوداء القصيرة، وقال متهكمًا أنه يمتلك نفس موهبتي في الكتابة، لكن ليس باستطاعته الإمساك بالقلم لفترة طويلة بسبب طول أظافره.

وأخبرني «مايكل»، يومًا بصوت بدت الجدية عليه، أو ربما كان يتهكم، في سعيه لحثي على الكتابة، بأنني سأصبح يومًا شخصية شهيرة، وقد أفوز بإحدى جوائز القصة أو الأدب الأمريكية على مذكراتي، ليس بالضرورة لأسلوبها بل على الأقل لأسبقيتها في مجالها، فربما ستكون أول مذكرات في التاريخ لمشرد. وهنا انتبه لجانب المبالغة في كلامه فقال: أو ربما لأول مشرد أمريكي يكتب مذكراته. وأردفت قائلًا، وإن كان هناك مشرد أمريكي آخر قد سبقني في كتابة مذكراته فسأكون

حتمًا، أو على الأقل، أول مشرد أمريكي من أصل عربي يكتبها، أو في أضعف الإيمان أكون أول مشرد أمريكي من أصل سوري في التاريخ يكتب مذكراته.

لقائي بالأمريكي الأفريقي، «مايكل» لم يحدث مصادفة، فقد كنا نتقاسم مكانًا مريحًا تحت جسر الاستقلال، وهو مكان اخترته ليكون مأواي ليلًا بعد أن أصبحت درجات الحرارة تميل تدريجيًا للانخفاض، وبعد أن أصبح النوم على كراسي الحدائق العامة والطرقات أمرًا صعبًا لمن هو في سنة أولى تشرد.

كانت لمايكل ضحكة جميلة، وله تقاطيع ناعمة نوعا ما، وربما كانت أصوله تعود لأفريقي أثيوبيا، من أنف دقيق وعيون سوداء مستديرة وكبيرة وشفتين رقيقتين كان يفضل بقائهما مزمومين تخفيان ابتسامة آسرة. تعرفت عليه أمام أحد الملاجئ الواقعة على أطراف المدينة، ونحن ننتظر دورنا في استلام نصيبنا من الطعام الساخن الذي كان يتكون في ذلك اليوم من

شريحة سندويش وكوب بلاستيك به شوربة عدس ساخنة في إناء بلاستيك وقعر.

كان مايكل يقف أمامي، وشعر من تذمري من بطء حركة الطابور بأنني ربما أكون جائعًا أكثر منه، فعرض أن يتنازل لي عن دوره! أتذكر يومها أنني رفضت عرضه، مما دفعه للإلحاح أكثر على ضرورة تجاوزه في الدور، وزاد على ذلك بالطلب ممن كان يقف أمامه أن يعطيني أيضًا دوره، فرفضت مكتفيًا بحلولي مكانه.

تبادلنا الأسماء، دون أن نتصافح ونهز أيدي بعضنا البعض، بل بقينا صامتين، فليس هناك ما يمكن لمشرّدين تبادله من أحاديث، فلا اهتمام بالطقس ولا ولع بمباريات البيسبول أو كرة السلة وغيرها، ولا أدني اهتمام بالسياسة ولا بالانتخابات المحلية القريبة التي كنا نرى إعلانات مرشحيها تملأ الطرقات، فهذه الأمور ليست ضمن أجندة أي متشرد، وهذا ما جذبني لهذا النوع من الحياة أصلا، فلا التزامات من أي نوع كان ولا

حضور حفلات زواج مملة، ولا اضطرار لرسم ابتسامة سعادة كاذبة على الوجه، أو ممارسة واجبات تقديم العزاء المزيفة في قريب أو صديق، وترديد الأجوف من كلمات العزاء، وافتعال علامات حزن كاذبة على الوجه، وكأن الفقيدة أو الفقيد كان يومًا فريد عصره، لتختفي علامات الحزن عن الوجه مع انتهاء طابور المعزين.

استلمت علبتي، وانتظرت قليلًا انتهاء مايكل من استلام علبته، لكي نجلس في مكان ونتناول طعامنا معًا، ولكن مسئول الملجأ فاجأ الجميع عندما أخرج رأسه من الكورة الصغيرة التي كانت في باب مطبخ الملجأ ليخبر كل من كان في طابور المشردين الجياع بأن علب الطعام التي كانت لديه قد تم توزيعها كلها، وعلى من لم يستلم شيئًا العودة بعد ساعتين تقريبًا، وستكون الدفعة الثانية قد وصلت.

نظرت إلى مايكل فإذا بكل إمارات الخيبة بادية على وجهه، وهو ينظر ليدي اللتين كانتا تحملان العلبة، التي

كان من المفترض أن تكون من نصيبه، فلم أتمالك نفسي من مد يدي وعرضها عليه، فأخذها وقال شيئًا لم أكن أتوقعه من مشرد: دعنا نتشارك بها...! وكانت تلك بداية صداقتنا أو علاقتنا، وهي العلاقة الوحيدة التي كونتها في تشردي، فارتباط مشردين أو أكثر بعلاقة ما تلغي الهدف من التشرد، وتتعارض مع الفكرة أساسًا، ولهذا نجد أن جميع المشردين يسيرون أو يعيشون، ربما من قلة العيش، منفردين، وإن أحسوا بالحنين لرفقة ما فإنهم غالبًا ما يلجئون لعالم الحيوان واقتناء كلب، وغالبًا ما يكون مشردًا مثلهم.

كما تعلمين فقد تركت البيت لآخر مرة وبجيبي مبلغ الثلاثمائة دولار. كنت في حيرة من أمري، بعد أن قررت في الليلة السابقة أن أهيم على وجهي من غير هدف. استعانتي بشيء من ذلك المال لشراء طعام يعني بداية فاشلة، وقد يدفعني فشلي إلى العودة للبيت ولكل ما قررت الهروب منه.

كان على الاعتماد على قرار التشرد وعدم الاستعانة بشيء من ذلك المبلغ تحت أي ظرف يمكن تجاوزه بقليل من الجوع والتعب.

بعدها بأيام أصبح المبلغ الذي كان بجيبي يشكل هاجسًا، فلم أكن أشعر بالراحة أو الأمان بوجود تلك الثروة في جيبي، نعم.. سرعان ما أصبح المبلغ الذي معي ثروة في عالم التشرد. كما كنت أخاف معرفة أحد المشردين المدمنين بوجود ذلك المبلغ معي، حينها سيقطعني وملابسي بحثًا عنه. ولكي أشعر بالأمان ولا أصرف منه شيئًا، قمت بخياطة المبلغ في تجويف داخلي في بنطالي الجينز، بحيث لا يمكن اكتشاف وجوده، ولكني تعلمت أو عرفت تاليًا ألا أحد حقيقة ممن كانوا حولي كانوا سيكترثون بوجود المال معي، فقد كان ذلك آخر هم غالبيتهم بالفعل.

كنتُ مشردًا مودرن، ولهذا حرصت على بضعة أمور منها الانتظام في قص أظافري وفرش أسناني مرة

في اليوم، وفي الصباح غالبًا. كما حرصت على قضاء حاجتي في مكان مناسب، متى ما أتيح لي ذلك، ولم يكن ذلك سهلًا، فالحمامات العمومية قليلة، وكنت أنتظر أحيانًا لفترة طويلة أمام أحدها إلى أن يخلو لي الجو فأدلف لداخله، وأنهي الأمر في دقائق، ولكن لم يكن الأمر سهلًا دائمًا بسبب عدم انتظام وجباتي، ونوعية ما كنت مضطرًا لتناوله من طعام، وهذا كان يصعب كثيرًا من حركة المعدة. وهكذا لم أهتم بأمور حياتي الأخرى التي ربما كانت أكثر أهمية، ولكن ذلك ما قررته واتبعته طوال سنوات.... بدت لي مع الوقت وكأنها عدة عقود طويلة ومملة!

لكوني مشردًا غير محترف، ولغياب فلسفة التشرد في المجتمع الذي سبق وأن قدمت منه، وغيابه من تربيتي وبعده عن بيئتي وقلة من يمكن وصفهم بالمتشردين في مجتمعاتنا العربية، بالمعنى الغربي المعروف، فقد وجدت في مايكل، أو وجدنا في بعضنا البعض، نوعًا من

الألفة، أو العلاقة البشرية التي كانت لا تزال في داخلنا دون أن نعترف بوجودها.

انتبهت يومًا إلى أن مايكل يعلق صليبًا معدنيًا كبيرًا وثقيلا في رقبته، وتحت قميصه الرث، وعندما لاحظ ما كانت تشي به نظراتي من اسئلة أمسك بالصليب وقربه من وجهي قائلا: لا يا صديقي لا، لست متدينًا، بل كنت كذلك قبل أن أختار الشارع مكانًا وبيتًا. لجأت للكنيسة مرات.. إما للصلاة أو كمأوى أو للحصول على الطعام وكنت أطرد في كل مرة، إما بسبب لوني أو شكلي المريب، ففقدت إيماني ببيت رب لا يستقبل جائعًا ومحتاجًا مثلي، ولكني استعدت شيئًا من ثقتي برجال الدين بعد أن لاحظت أن غالبية من يعطفون علينا هم من رجال الكنيسة. سكت مايكل، وأخذ قضمة كبيرة من قطعة السندويش التي قررنا تقاسمها، قبل أن يناولني ما تبقى منها، وعندما لاحظ أنني لا ازال أقلب النظر بين وجهه والصليب استطرد قائلاً، ولا يزال الطعام يملأ

فمه وقطع صغيرة تتطاير من بين أسنانه المكسورة على ملابسه الرثة، بأنه حمل ذلك الصليب لسنوات طويلة، ولم يخلعه لأن وزنه يساعده في السير بشكل متوازن. وأضاف قائلًا، بعد أن أخذ رشفة سريعة من حساء العدس الحار، وقد انفرج فمه عن ابتسامة صفراء تعود للون أسنانه وليس لنواياه، لرؤية ما ارتسم على وجهي من علامات تعجب لما ذكره عن الصليب، بأنه قرر يومًا التخلص منه بعد أن طرد شر طردة من أمام أحد الكنائس، وتعنيف الحارس له، وهو الجائع والمعدم، فقام برميه في أحد زوايا مبنى الكنيسة الكبير، ولكنه اكتشف في اليوم الثاني او الثالث، فهو لا يتذكر جيدًا، وربما بعد أسبوع أن ليس من السهل عليه السير بدون ذلك الصليب، وأن سيره في خط مستقيم أصبح صعبًا مع تأرجح جسده ذات اليمين وذات اليسار، فعاد للكنيسة يبحث عن صليبه، فوجده مدفونا في التراب بانتظار من يلتقطه، ومنذ يومها لم يغادر رقبته، وأصبح قريبًا من

قلبه المتعب، الذي غادره الإيمان... ربما إلى الأبد.

لم أتبادل ومايكل أية أحاديث في عصر ذلك اليوم، وهذا هو الأمر الطبيعي، فالصمت في حياة المشرد أمر مقدس بل هو المقدس الوحيد. فالمشرد لا يود التحدث كثيرًا لكي لا يعود بذاكرته لسابق أيامه ويحن إليها، فقد تركها خلفه، وأصبحت شيئًا من الماضي.

لم تكن هناك ساعة محددة لعودتنا لما أطلقنا عليه مأوى فلم نكن نحمل ساعات أصلًا، بل كانت أقدامنا غالبًا ما تأخذنا للمكان الذي اعتدنا النوم فيه، هذا إن لم يداهمنا الكسل فجأة في الطريق إلى المأوى وننام على أي من كراسي الانتظار أو المسطحات في الحدائق الصغيرة. ولكن انخفاض درجات الحرارة كانت تدفعنا غالبًا للنوم تحت الجسور، وكان مشردون آخرون يسبقوننا أحيانًا لتلك الأماكن الأكثر دفئا، ولكن مايكل كان يتكفل دائمًا بطردهم.

المفاتيح

لا تسألني عن السبب الحقيقي الذي دفعني لتركك والبيت والوظيفة وكل شيء، فليس لدي حقيقة سبب جوهري واحد، كنت فقط أريد أن أفعل شيئًا خارج المألوف، أن أتشرد. لقد تحدثت عن التشرد من قبل وسأعود للكتابة عنه مرة أخرى، فليس سهلا القبول بهذا الوضع الذي أنا عليه بغير اقتناع تام، والكتابة عنه بين الحين والآخر قد يكون مملًا لي ولك إن بدأت بقراءة هذه الأوراق أو شبه المذكرات، ولكنها ضرورية بالنسبة لي فأنا بحاجة لأن أقوي من عزمي وأسير في الطريق الذي اخترته. نعم أردت أن ابتعد عن أية مسئولية كانت. فقد هربت بعد أن سئمت من جارنا سرجون العراقي وسيرجيو البولندي. سئمت من سخيف اهتماماتهم بالبيسبول، ومن وضعهم المالي الأفضل، ومن عدد أبناء كل منهم، وأنا الذي لا ابن لي.

لا أستطيع أن أضع يدي على سبب رئيسي محدد، ولكن كنت أود أن أتشرد واتبهدل لأعرف قيمة ما لدي، قيمتك أنت وقيمة حياتي معك، وكل ما تعنيه لي، ولكن يبدو أنني تماديت كثيرًا واستمر الإحساس الرائع بعدم الالتزام والشعور الجميل بغياب المسئولية من حياتي، فلا مواعيد، ولا مفكرة جيب ولا مكتب، ولا منبه... بل شعور ممتع بالتراخي النفسي والهدوء العقلي دون إحساس بالرغبة في التفكير بأي شيء. حتى الجنس والجوع أصبحا، مع الوقت، أمورًا قابلة للتعامل معها بطريقة او بأخرى، فلا داع للتخطيط لها أو الترتيب لإنجازها أو ضرورة قضائها.

نصحني صديقي «مايكل» أن أستخدم قلم الرصاص في تدوين ذكرياتي، فالكتابة به أسهل وحمله أكثر سهولة، وإن ضاع فيمكن إيجاد بديل عنه، والممحاة في طرفه الآخر تساعد على تصليح الأخطاء، وإعادة كتابة الجمل أو الكلمات. والأهم من كل ذلك ألا أحد تقريبًا يهتم

بقراءة ما يكتب بالقلم الرصاص، مقارنة بما يكتب بحبر أزرق مثلًا، أو هذا ما كان مايكل يعتقده، وبعد كتابة بضع صفحات بالحبر اقتنعت بصواب رأيه.

ربما كانت بداية شعوري بالسأم من حياتي وقلقي من مستقبل علاقتنا، ويأسي من وضعي الوظيفي والصحي يوم علمت بطريق الصدفة، عندما خضعت للفحص الطبي قبل الحصول على الجنسية الأمريكية، عندما أخبرني الطبيب حينها بأن أستشير معالجًا نفسيًا، بعد أن أخبرته بما تعرضت له من اعتداء جسدي ونفسي من المرأة اليونانية ومن أحد أقربائي، زوج عمتي، عندما أرسلني والدي لزيارة أسرة أخته في اللاذقية، والبقاء في ضيافتهم بضعة أيام، وهذا ما سبق وأن اخبرتك به عن الحادثتين، العنيفة والمؤلمة، وكانت ضغوطها النفسية تأتيني أحيانًا وأنا في تمام وعيي وأحيانًا في منامي، فأقوم من النوم فزعًا من إعادة وقوع الاغتصاب، أو كأن هناك من يريد الانتقام مني لما كنت أفعله معك

في غرفة النوم. كانت عملية الاغتصاب التي تعرضت لها على يد تلك المرأة اليونانية تزورني كثيرًا في منامي وتقلقني.

هل تذكرين، لقد كنت تفكرين كثيرًا في تبني طفل؟ وسبق أن ذكرت معرفتك أو سماعك عن عائلة سورية، تعيش في منطقة قريبة من هيوستن تورطت ابنتهم المراهقة بعلاقة جنسية وحملت منها، وتريد التخلص من جنينها، وكيف عرضت عليهم أن تحتفظ الفتاة بالجنين، وأنك ستتكفلين بنفقات الحمل والولادة. أتذكر أنني تقبلت الفكرة حينها بتردد، وكنت تبدين سعيدة وفرحة عندما كنت تتحدثين معي عن طريقة تنفيذ خطة التبني وما سيدخله الطفل على حياتنا من تغيير، ولكني في الحقيقة لم أكن أطيق تبني طفل لا يكون مني، من صلبي، لأن صلبي مقفل ولا أحد يستطيع فتحه، أو حثه لأن يخرج ما بداخله. كما أتذكر أنني خيبت أملك عندما قمت بإجراء عملية حسابية بسيطة بينت لك فيها

عدم قدرتنا على الصرف على مشروع التبني، وإن من الأفضل اختيار طفل من أحد الملاجئ أو أحد الوكالات الحكومية، فستكون التكلفة أقل بكثير.

كان يوم سبت، أتذكر ذلك جيدًا، يوم رفضت فكرة زيارة مختبر الدم، وتاليًا زيارة طبيب الأسرة، واعترفت لك بكل ما كان يقلقني كتمانه عنك، وكيف صعقت من اعترافاتي، وكيف اختلطت دموعنا يومها.

أتذكر أنك اقترحت أن أذهب لزيارة ابن عمتي في بولدر، وربما قضاء بعض الوقت معه، وربما أيضًا إيجاد عمل هناك. جعلتك تشعرين أنني تقبلت اقتراحك، ولكني كنت أكره زيارة ومواجهة ابن من تسبب في دماري داخليا. كنت أشعر بالرعب منه أنه ربما عرف بما حدث معي ووالده، ولكني أخفيت عنك رأيي وتركتك تتوهمين أنني سأسافر فعلًا لبولدر، وربما سأعود شخصًا آخر، أفضل .... ربما.

تركت البيت، وتركت كل شيء ورائي لك. وحرصت

على ترك كل مفاتيحي بما في ذلك مفاتيح باب البيت لكي أخبرك، بطريقة غير مباشرة، بأن لا تنتظري عودتي قريبًا، وربما لن أعود أبدًا، فعلاقتي بالمفاتيح، كما تعرفين، كانت دائمًا علاقة خاصة، فهي التي تربطني بأشياء كانت طوال حياتي تعني الكثير.

عند ما كنت صغيرًا وثق بي أبي يوما وأعطاني نسخة من مفتاح البيت! كان سروري بذلك المفتاح لا يوصف. شعرت حينها أنني أصبحت رجلًا، وأن لدي وحدي، دون مئات المارة من أمام البيت، حق دخول بيتنا. كما كان لدي صندوق خشبي صغير أضع بداخله كل ما كنت أعتبره خاصًا بي، من محفظة نقود خالية غالبًا، وقلم حبر أهداه لي خالي أديب، ولم أحصل أبدًا على حبر للقلم. كان للصندوق قفل، وكنت أحمل مفتاحه مع مفتاح البيت، وأعلقهما بخيط برقبتي.

كما كانت علاقتي بأول سيارة اشترياها في أمريكا تتم عن طريق المفتاح، بعد أن رفضت شراء سيارة

تعمل بضغط زر خاص، وفضلت الطريقة الكلاسيكية في تشغيل السيارة. كان للمفتاح في خيالي رمز ذكوري، فهو الذي يفتح ويثمر ويعطي، فبغيره لا دخول لبيت، ولا تناول لطعام ولا شعور بدفء ولا مركبة تعمل وتنطلق، أو آلة تشتغل.

كنت أتفنن في حفظ أو تعليق المفاتيح في حلقات وسلاسل معدنية وفضية، وتعليقها أحيانًا في أحد حلقات خصر البنطال أو بحلقة من حزام الظهر وأتركها تتدلى وترتطم ببعضها البعض محدثة صوتًا طالما سرني سماعه. كما كنت أحرص على وضع أقفال، مختلفة الأحجام والأشكال، على أشياء كثيرة لا تحتاج لأن تقفل أصلًا، ولكني كنت مغرمًا بهذا الأمر. وكنت تسألين أحيانًا عن سبب شغفي الغريب بالأقفال والمفاتيح.

كانت لدي أقفال بأرقام وأخرى بمفاتيح، وثالثة بمفتاحين، ولكن عدد المفاتيح كان يتزايد أحيانًا ويصعب حملها وكنت أتحايل على ذلك بإخفائها في أماكن سرية

خاصة، وكان مخي يحتفظ بخريطة شبه معقدة لمكان كل مفتاح والغرض منه إن كان قفلًا أو درجًا أو خزانة أو صندوقًا. وكانت الخريطة الافتراضية تبين غرف البيت وخزائنه وممراته وحتى أجزاء محددة خارج البيت، في الحديقة الصغيرة وغرفة حفظ مواد وأدوات الزراعة.

كنت أضع المفاتيح فوق خزائن المطبخ، وخلف أفران الطبخ، أو أضعها داخل أكياس بلاستيك محكمة لا يتسرب الماء لها وأخبئها في خزائن سيفون الحمامات، أو ألصقها على شفرات مراوح السقف، أو أضعها في الجيوب الداخلية للشورتات التي نادرًا ما أستعملها، أو أدفنها في أماكن سرية في ممرات الحديقة الخلفية.

كنت أشعر بالاطمئنان بأن أموري الخاصة، على قلتها، مصانة ومحفوظة، طالما هي بعيدة أو مخفية عن أعين الآخرين. وكنت أتعامل مع أشيائي بنفس الطريقة التي كنت أتعامل بها مع ذكوريتي التي كنت أخفيها حتى عن أعين أصحابي الصبية عندما كنا نلتقي في حمامات

المسبح العمومي، وكنت أتمنى لو كان للسراويل الداخلية أقفال، لأخفي أعضائي التناسلية عن أعين الجميع... ويوم تركت كل مفاتيحي في حديقة البيت في عصر ذلك اليوم وخرجت وأنا أقفل الباب خلفي كنت أعلن ليس فقط انتهاء علاقتي بك، وبالبيت وبكل قفل فيه، بل وأيضًا عن بداية مرحلة جديدة، وإن كانت غامضة تمامًا؛ مرحلة لا بيت فيها ولا باب ولا جوارير ولا خزائن ولا صناديق ولا حقائب، ولا أقفال ولا مفاتيح، ولا خريطة عقل افتراضية... وأعترف بأن ذلك كان شيئًا لم أكن أتخيل يومًا وقوعه.

الخلاص من الأسر

سوف أحدثك عما جرى لي وأنا مدرك أنك سوف لن تغفري لي ما سأسرده في هذه الوريقات، وما فعلته بك، وهي السنوات التي طالت ربما لسبع أو عشر سنوات أو أكثر، فلا أتذكر بالتحديد عددها، بعد أن فقدت إحساسي بالوقت تمامًا، وفقدت ربما نصف وزني، وهذا كان مجرد تخمين مني. كنت أرى وجهي في المرآة بين الفترة والأخرى عندما أذهب لحمام عمومي للاغتسال بعد أن يصبح صعبًا الاستمرار في تحمل كل ما كان يتراكم على جلدي من عرق وأوساخ. والغريب أنني بعد أن تخلصت من أقفالي ومفاتيحي أصبحت فجأة لا أعبأ ولا أكترث، وأنا في تلك السن المتقدمة نسبيّاً، من السير عاريًا أمام أي كان، دون شعور بالحرج أو الخجل. لم أخطط لذلك ولم أفكر به، وجدت نفسي يومًا أتبع مايكل وأفعل مثله، خلع ملابسه تمامًا وقفز في الماء،

ففعلت مثله، وقفزت في مياه بحيرة الحديقة العامة. لم أفكر بفعلتي لحظتها، ولكن عندما كنت مستلقيًا ليلا تحت الجسر بعيدًا عن مايكل تذكرت أنها المرة الأولى التي لا أعبأ بها بنظرات الغير وأنا عار تمامًا.

وحتى عندما كنا نمارس الحب كنت أصر على أن أخفى عورتي، وأن يتم ذلك في الظلام، ولم تكوني تبدين أي أعتراض، وربما ناسب ذلك مزاجك الخجول.... كامرأة.

لقد تخلصت في ذلك اليوم من عقدة كانت تلازمني منذ مراهقتي وتجربتي مع المرأة اليونانية، ومحاولة زوج عمتي الاعتداء على جنسياً. أصبحت لا أكترث لأن يراني الآخرون عاريًا تماما أو السير أمام الغير فقد انتهت علاقتي بالأقفال وبالمفاتيح وبالأسرار، فتخلُصي منها ربما ساهم في تحرري من القيود الجنسية والنفسية التي طالما قيّدت نفسي بها، بعد أن أصبحت حرًا وغير ملتزم بعرف أو عادة، أو مقيد بتصرف لا يقبله الآخرون

أو المجتمع، فجميع هذه الأمور أصبحت خلفي ومن الماضي، فلا أهمية لما يقوله أو يفكر به الناس عني فقد بلغت الحضيض ولا حرج علي، أو ربما بلغت قمة عدم الاكتراث.

أعلم أنك كنت تعتقدين، بعد أن تركت حياة التشرد في أمريكا، ولحقت بك إلى دمشق، بأنني سأخبرك بما حصل معي، ولكني لم أفعل بالرغم من شعوري أنك كنت تتحرقين شوقًا والفضول بداخلك يدفعك لسؤالي بغية معرفة ما حصل لي، ولم تتردي في التلميح بذلك أكثر من مرة، ولكني كنت اتجاهل تلميحاتك. كما كان لدي شعور قوي بأنني سأرحل قبلك، وستتاح لك فرصة قراءة هذه الأوراق عن سنوات تشردي، ولم أكن أمتلك الجرأة وربما ولا حتى الأسباب المقنعة للحديث معك وجها لوجه عن تلك الفترة البائسة.

سأخبرك بأمر لم أطلِّع عليه أحدًا بعد، وهو الأول في عدد من الأمور الشخصية التي لم يعرف عنها أحدٌ

شيئًا، والتي سأورد ذكرها في هذه الأوراق.

عندما وصلت لمرحلة السأم التام من نفسي ومنك ومن كل محيطي ومن روتين عملي، وتزامن ذلك مع رفض مديري الترقية التي كنت أتوقعها، وكانت مستحقة منذ فترة. كما رفض حتى تقدير عملي بزيادة أجري الذي طالما طالبته به.

كان ذلك الرفض يشبه القشَّة التي قصمت ظهري وقضت على صبري، وكان عليَّ فعل شيء ما لتغيير حياتي قبل أن أصاب بالجنون.

فكرت يومها في الانتحار، والتخلص من حياتي. ولكن بعد تفكير لم يطل استسخفت الفكرة، فقد بدا ذلك ضربًا من الجنون الذي لم أصل له بعد. فلم يكن هناك ما يدفع شخص مثلي لأن يتخلص من حياته. ولكني بالفعل وصلت لتلك المرحلة أيامها، وكنت أنوي مفاتحتك بحالتي، مع شكي في أنك سوف تتفهمين حقيقة مشاعري وحقيقة ما كان يدور برأسي من أفكار، وبالتالي كان قرار ترك كل شيء

ومغادرة البيت هو طريق الخلاص الوحيد أمامي لأبقى حيّاً .

أما ما دفعني بعد كل هذه السنوات لاتخاذ قراري بالعودة لك، بعد أن علمت أنك تركت هيوستن وعدت للشام، ما أصبحت أشعر به من آلام مفاجأة في الصدر. لم أكن أسعل أو أبصق دمًا، ولكن شيئًا ما كان يقول بأنني سأموت موتة الكلاب في أحد شوارع أمريكا إن لم أعد لك. ولكني لم أكن أمتلك لا الرغبة ولا القوة للاتصال بك وطلب العودة للبيت .

سأذكر لك تفاصيل أكثر عما أخبرني به الطبيب عندما فحصني .

التفكير في معنى الحياة

انكسرتْ اليوم إحدى عجلات عربة السوبر ماركت التي أصبحت رفيقتي منذ أكثر من سنة أو لفصلي شتاء، على ما أتذكر. تحولت محتويات العربة مع الوقت، بأكياسها البلاستيكية المفتوحة، التي لا تحمل أقفالًا، ليس فقط لمخزن أمتعتي، بل لبيتي وإنْ بلا مفاتيح ولا أقفال.

كنت أترك العربة في أي مكان وأعود لها بعد أيام وأجدها كما هي، ربما بعيدة بضعة أمتار عن المكان الذي تركتها فيه، ولكن كنت دائمًا أجدها كما هي، فكل من فكر في أخذها لاستخدامها كان يغير رأيه عندما يكتشف أنها بعجلات ثلاث ويصعب استخدامها. كما أن شكل ما كان بها من أكياس قذرة تبدو غير ذات قيمة كان ينفِّر الجميع منها. وطبعًا لم يكن أحد يعرف أن العجلة المكسورة كانت تحت الأكياس، وكنت أعيد تركيبها في

مكانها عندما كنت أود الانتقال بعربتي من مكان لآخر، وعندما أركنها كسيارة خاصة في مكان ما كنت أزيل العجلة المكسورة وأعيدها لمكانتها تحت الأكياس، فلا يكترث بالتالي أحد بسرقتها وهي تتلوى في سيرها. فكرت في استبدال عربتي بأخرى بعجلات أربع سليمة، ولكن لم أكن مطمئنًا بأنها ستبقى ولن تسرق، أو يأخذها من يحتاج لها. كما أنني لسبب ما، ربما للفراغ الكبير في حياتي، تعلقت بها ولم يكن سهلًا هجرها فقد كانت رفيقة دربي وأنيسة وحشتي وحاملة أمتعتي وخزانة أسمالي البالية، وحافظة طعامي، كما كنت أحيانًا أتكلم معها، وكان حديثي معها يؤانسني، وتعلمت ذلك التكنيك من فيلم Cast Away الذي سبق أن مثله «توم هانكس»، والذي كان يكلم في الفيلم دمية صنعها بنفسه وأصبحت تعويذته، والتي أنقذته من الجنون.

ولكن جاء وقت كان لا بد من هجر تعويذتي أو عربتي، وإن أزعجني ذلك، ولهذا قررت أن أحتفظ بشيء منها

فأخذت العجلة المكسورة ووضعتها في جيبي، وحملت أكياسي البلاستكية وانطلقت أبحث عن شيء آخر أتعلق به أو أكلمه.

جلست اليوم تحت عمود النور المقابل لمدخل محلات «سوبر وول مارت»، سلسلة محلات التجزئة الأكبر في العالم التي يزيد عدد فروعها عن 11 عشر ألف، والتي تزيد قيمتها السوقية عن 150 مليار دولار، وأخذت أقارن وضع أصحابها من عائلة «والتون»، ووضعي بما أملكه من دولارات قليلة في أحد زوايا بنطالي لا يعلم بها أي كان. تساءلت بيني وبين نفسي، فلا أحد يكترث بأفكار مشرد غيري: هل آل والتون أكثر سعادة مني بكل ما يمتلكوه؟ وهل لو أصبحت أحد أبناء هذه الأسرة، ومعتل الصحة مثلًا، سأكون أكثر سعادة منهم؟ ما هي السعادة أصلًا؟ وكيف يمكن قياسها؟ أنا أجدها في هذه اللحظة في غياب أي التزام أو مسئولية. أجدها في ابتسامة مايكل. أجدها في هذه السماء الصافية التي أنظر لها والبحر

الأزرق الرقراق، وعيون فتاة صغيرة، وطفل يعرض علي قطعة من الشكولاتة، أجدها في معدتي المليئة، أجدها في السرعة التي يتسرب النوم فيها لعيوني بمجرد أن أضع رأسي على مخدة من تراب أو قطعة كرتون مطوية.

كل شيء نسبي في هذه الحياة، كما سبق وأن قال « ألبرت آينشتاين». فالجلوس ساعة مع من تحب يمضي فيها الوقت بسرعة هائلة فتخال الساعة مرت كثانية. وفي الجانب الآخر لو طلب أحد منا أن نجلس لثانية فقط على سطح ملتهب فستمر الثانية كساعة.

وتساءلت بيني وبين نفسي، للمرة الثانية، ماذا لو توقفت سيارة فخمة وطلب مني صاحبها أن أركب معه، وقدم نفسه ب»مستر جون والتون»، صاحب المحلات؟ هل سأذهب معه دون سؤال أم سأطرح عليه بضع أسئلة فلسفية تتعلق بالغرض من دعوتي، وإلى أين سيأخذني، وماذا يريد مني؟

أعجبتني الفكرة فاستمر جلوسي بانتظار مرور جون،

ولكن جون لم يأتي أبدًا، وهذا ذكرني بمسرحية «في انتظار غودو» للمبدع الأيرلندي «صاموئيل بيكيت، ولا أزال أذكر جملة رائعة وردت في أحد روايات الروائي البرازيلي «باولو كويلهو دي سوزا»، مؤلف رواية الخيميائي، والتي يقول فيها: لكل منا ألمه وهمه الخاص. فأن نظن أننا على الدرب السليم شيء، وأن نعتقد بأن هذا الدرب هو الدرب الوحيد شيء آخر!

وأنا هنا أشعر بأنني ربما لا أكون على الدرب الصحيح، ولكني حتمًا أسير على الدرب الوحيد الذي أعرفه الآن، وهذا يناسبني تمامًا، وأنا سعيد بذلك.

كيف يمر الزمن

كان مايكل يستغرب إصراري على الكتابة بالعربية، بالرغم من معرفتي الجيدة بالإنجليزية. وكان يراقبني أحيانًا بفضول وأنا أخط تلك الطلاسم، أو الجبرش Gibberis كما كان يسميها، وهي كلمة مشتقة من علم الجبر الذي وضعة الخوازمي وكانت كتاباتة في الجبر غير مفهومة للكثيرين. لم أرغب في مضايقته بالقول أني اخترت كتابة خواطري بالعربية لأنني أولًا لا أريد من هم حولي، على قلتهم، وانشغالهم بالفراغ حولهم، قراءة ما أكتب. وثانيًا، ولأنها كانت خواطري الخاصة، فإنني لم أكن أرغب في أن يطلع أحد عليها، أو يأخذها، فالناس غالبًا لا تسرق الأشياء التي لا تعرف ما هي وربما كان هناك سبب آخر يتعلق بشعوري بالراحة أكثر بالكتابة بالعربية مقارنة بالإنجليزية، حتى بعد أن انتقلنا للعيش في أمريكا.

يعتقد غالبية البشر أن حياة التشرد بائسة ومجرد التفكير بها أمر مرعب، ولكنني أصبحت أقتنع يومًا عن يوم بأنها ليست بكل ذلك السوء، خاصة إن لم يكن الإنسان مجبرًا عليها. حياة التشرد تعني ببساطة أن من يعيشها معفي من الالتزام بأي أمر أو عمل. والكتابة عن حياتي في التشرد تساعدني كثيرا خاصة عندما أتعب وتنتابني رغبات جامحة في ان أعود لك فورا وأضمك إلى صدري، وأمارس الحب معك، وممارسة العنف الجنسي، كما كنت أفعل معك في سوريا، ولكن الخوف من العودة لروتين حياتي السابقة وسلسلة الالتزامات التي سأعود لها، وتوقف الحلم الذي أنا فيه، دون مبالغة، كانت جميعها تدفعني لأن أستمر في وضعي.

يقول البعض ناصحًا بأن علينا، قبل أن ننطق برد ما، أن نسمح للآخر أن ينهي ما يود قوله. فالإنصات فن لا يتقنه أحد كالإنسان المشرد. فنحن لسنا على عجلة لمعرفة أي أي شيء جديد، ونعطي من يتحدث

معنا مساحة ووقتًا كافيًا ليدلي بكل ما لديه، وبعد ذلك غالبًا لا يكون لدينا ما نرُد به عليه.

لا أدري حقيقة كيف يمر الوقت، فالسنين تجري سريعة إن كنا كثيري الانشغال بأنفسنا وبما حولنا.

الغالبية تنشغل بالتعليم ثم إيجاد عمل ثم بحث عن زوج أو زوجة، ثم إنجاب أطفال والانشغال تمامًا بتربيتهم، وعلاجهم وتعليمهم، وتوصيلهم للمدارس وفجأة نجد أن الوقت قد مر سريعًا دون أن نستمتع حقيقة بلحظة منه. كما أن الوقت يمر سريعًا، كما مر معي، عندما لا يقوم الإنسان بفعل شيء، لا شيء، فلأن الوقت لا قيمة له، فإنه يصبح غير ذي معنى، ويمر سريعًا، فتناول علبة بيرة قد يأخذ ساعة من مشرد، وأقل من ذلك بكثير مع من يجالس رفاقه مثلًا. وبالتالي الوقت ثمين وهام لمن يفكر بكيف يستفيد منه، وهؤلاء قلة، أما البقية فيمر بهم ولا يشعرون به إلا وقد... مضى. فلو جلست الآن لساعات من أجل أن أتذكر ما قمت به طوال السنوات الماضية

التي مرت بي سريعًا لما تذكرت شيئًا غير التسكع مع عربة السوبر ماركت، والبحث عن الطعام عندما تبدأ بطني بإصدار صوت محدد ويتبع ذلك تلوى مصاريني وكأن أحدًا يعصر قطعة قماش بداخلي. أتذكر أنني كنت أنام كثيرًا، وأحيانًا لساعات طوال. كنت أخمن الوقت فلم أكن أمتلك ساعة، أو أود أن أحمل ساعة.

كنت أحيانًا أدخل في نقاش مع مايكل عن الحياة وكان حديثنا يبدو متناقضًا تمامًا مع حالتنا ووضعنا، ولكن مع هذا كنا نستمر في النقاش وكان بعض المارة، أو من كانوا جالسين على أرائك الحديقة الأخرى بالقرب منا ينصتون لنا ويبتسمون أو يهزون رؤوسهم باستغراب من حيوية نقاشنا وآرائنا غير المنسجمة والمتناقضة تمامًا مع أشكالنا الرثة والمثيرة للشفقة، بنظرهم، ولكنهم كانوا ينصتون أحيانًا أو يمضون لحالهم أو يشيحون بوجوههم وهم يهزون رؤوسهم أو يبتسمون.

اتفقت ومايكل في أحد الأيام على أن نذهب إلى

أحد الملاجئ، أو بيوت بلدية المدينة المخصصة لإيواء المشردين، حيث الماء الدافئ والشوربة الساخنة. لم يطل المقام بنا طويلًا، فقد كان غالبية نزلائه من العجزة الذين فقدوا القدرة على أن يكونوا مشردين، وكرهنا، ربما سويّاً، التفكير في أن مصيرنا مستقبلًا سيكون مثل هؤلاء. لم نطلب الكثير من إدارة المأوى غير أن يتركونا ننام ساعة نشاء، ونتناول الوجبات ساعة نشاء، فكان الجواب بالرفض، وطلبوا منا في نهاية الأمر أن نترك المأوى في صباح اليوم التالي، وكان لهم ما أرادوا.

كنت أنشغل كثيرًا، أو بالأحرى كنت أستمتع بفتح أربطة أكياس البلاستيك وتفريغ محتوياتها، وإعادة ترتيبها ثم إعادتها للأكياس ثانية. كان هذا يأخذ مني جهدًا يشبه الجهد الذي يبذله البخيل وهو يعد أمواله، فلا يتعب أبدًا في العد وإعادة العد.

شعرت اليوم بالحنين لك، ولبيتي، فقد مررت بأسرة تجلس في سيارة بصورة عكسية، الأم والأبن في

الكراسي الخلفية والطفلين في المقعدين الأماميين، كانوا يتضاحكون وهم يلحسون أصابع الآيس كريم، وكدت أن أستسلم للحنين، ولكني نجحت في النهاية في التوقف عن التفكير في الأمر، مذكرًا نفسي بأن ليس هناك ما يشبه الحرية المطلقة، دون قيود ولا حدود، وهي التي أتمتع بها الآن ولست على استعداد للتفريط بها بسهولة، ليس الآن.. ليس الآن حتمًا، وليس بمثل هذه السهولة والسرعة.

توماس

كان يومًا باردًا وممطرًا عندما عاد مايكل ومعه شخص آخر من طائفة «مشردي هيوستن»، لم يسبق لي أن التقيت به، ولم أكترث كالعادة بتوجيه الأسئلة المعتادة عمن يكون، فهذا ليس من بروتوكولات التشرد. ففي عالمنا ينعدم الفضول وتصمت الأسئلة وتتأخر الأجوبة، وقد لا تأتي أبدًا فلا أحد ينتظرها، بخلاف الأمر في الحياة العادية، ففيها نود معرفة أصل وفصل من نلتقي بهم لأول مرة ومعرفة كل ما نستطيع معرفته عنهم، ولو القليل، كي لا نقع بالمحظور أثناء حديثنا معهم، فقد يكون أحدهم منتميًا لأقلية مكروهة، أو لحزب سياسي متطرف أو يعطي صوته لمرشح يميني أو يساري، أو يكون يهوديّاً أو مسلمًا أو مسيحيّاً أو لا دينيّاً، فإبداء رفض أو تقرب أو انتقاد لأي موقف أو جماعة يعني بداية خصام أو خلاف أو إحراج، وغير ذلك من تقسيمات

عديدة داخل أي مجتمع، بحيث لا تطمئن للحديث بحرية وطلاقة مع أي شخص تلتقي به لأول مرة، قبل أن تعرف خلفيته وهويته وانتماءه ومن ثم يكون الحديث بطلاقة وتلقائية أكبر، أو يتوقف عند حد معين. وهذا يذكرني بما كان ولا يزال بالطبع يجري في بلادنا. فعندما يتقدم شخص للعمل لدى صاحب عمل، ولا يدُل اسمه بشكل جازم على هويته أو دينه أو مذهبه، فإننا نجد صاحب العمل يطرح العديد من الأسئلة على طالب الوظيفة أو العلاقة لكي يتمكن من خلال الأجوبة عليها معرفة أو تكوين فكرة عن خلفية ذلك الشخص الأسرية؛ العرقية أو الدينية، وقد لا يقوم بتوظيفه بناء على إجاباته.

أما في التشرد فلا أحد يهتم أو يعبأ بمثل هذه التفرعات والاختلافات... وهنا تكمن روعة وضعنا هذا الذي سوف لن نتخلى عنه بسهولة حيث لا حذر بل راحة مطلقة ترقد بين الضلوع وتسكن الأفئدة باطمئنان.

جلسنا تحت الجسر، واستمر صمتنا الطبيعي، ثم

أخرج صديقنا الجديد، أو الطارئ الغريب كيس قماش من جيبه، وعمل لنفسه لفافة من التبغ، وحاول إشعالها بعود ثقاب من علبة الكبريت، ولكن الأمر لم يكن سهلًا، فقد اضطر لتمرير العود على الجانب الخشن من العلبة مرات عدة دون جدوى، فعرضت مساعدتي، وطلبت منه أن يناولني عود الثقاب وعلبه الكبريت، وبضربة واحدة أشعلت العود وقربته له ليشعل سيجارته منها. أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يمررها لي وهو منبهر بما قمت به، ولكني اعتذرت بحركة من يدي، ولكنه أصر وأيضًا بحركة من يده، لكي آخذ السيجارة منه، ففعلت ذلك ومررتها لمايكل الذي تناولها مني بسرور، وسحب منها نفسًا أو «مجة» عميقة جعل طرفها الآخر يبدو وكأنه ضوء مصباح أحمر، قبل أن يعيدها لي لأناولها لصاحبنا الغريب، الذي لم أكترث، كالعادة، لمعرفة من يكون أو على الأقل اسمه، ليقوم بنفس الفعل ويعيد السيجارة لي، فأصبحت كساعي السيجارة بينهما، هذا يأخذ نفسها ويطلب مني

تمريرها للآخر، ليفعل هذا الشيء نفسه.

فعلت سيجارة فعلها، وكما توقعت انطلقت الضحكات منهما ومني تالياً، ضحكات بدت تارة عالية وتارة خافتة أو مخنوقة ومصحوبة بسعلات قوية وظرطات أقوى.... دون أن تصدر من أي منا كلمة واحدة.

أخبرنا ثالثنا، أو صديقنا الجديد، بعد أن قرَّبت بيننا ضحكات، فليس في التشرد صداقة بالمعنى الذي كنت أعرفه قبل التشرد، ولكني أعتبر مايكل صديق يمكن الاعتماد عليه، ففي حالتنا نادرًا ما يحتاج أحدنا للآخر، فالمشرد يمرض ويموت وحيدًا، كالكلاب والقطط الضالة!

أخبرنا الرفيق الجديد أنه يقترح علينا أن نهاجر إلى كاليفورنيا، أو ربما إلى مدينة لاس فيجاس في ولاية نيفادا القريبة من كاليفورنيا، حيث الدفيء والكثير من الطعام الطيب والقليل من المطر! ردود فعلنا التي تمثلت فقط بحركات أيدينا المتسائلة دفعته للاستطراد قائلًا

بأن لديه سيارة فيات صغيرة، كانت تعود لصديقه له، تركتها معه واختفت ولم تعد، ولا يعلم شيئًا عن مصيرها، وأنه يود الرحيل بها إلى لاس فيجاس، ولكنه لا يملك مالًا يكفي لدفع ثمن الوقود، كما أنه بعين واحدة، بعد فقد البصر في عينه اليسرى في شجار، وهو بالتالي غير مؤهل تمامًا للقيادة لمسافات طويلة بعين سليمة وأخرى زجاجية.

ما قاله عن عاهته دفعني للتفرس بفضول غير معتاد لتقاطيعه، والتساؤل، كيف لم ألاحظ أنه بعين زجاجية. لاحظت الأخاديد العميقة التي كانت تملأ وجهه، وتجعله يبدو في الستين، وربما لم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره، وهذا ما خمَّنته من نبرة صوته. كان يبدو عريض المنكبين ضامر البطن، ربما من سوء التغذية، ولكن بشكل عام كان يبدو شخصًا مرحًا سهل المعشر، أو هذا ما رغب في أن يبدو عليه، فتقاطيعه وسحنته الخشنة بيَّنت أنه مر بظروف صعبة، وربما كان سجينا لفترة ما.

عرض علينا «توماس»، وهذا اسمه الذي عرفته تاليًا، مشاركته في الرحلة، كل بجهده وما يستطيع المساهمة به في ثمن الأكل والوقود بيننا، وأن يقوم أحدنا بقيادة السيارة. أخبرناه أننا مفلسون، لا نملك غير بضعة دولارات هي بالكاد تكفينا للخروج بالسيارة من هيوستن، فما بالك بقطع أكثر من ألف كيلومتر في أرض صحراوية في غالبيتها، هذا غير تكلفة الحصول على الطعام! اقترح توماس أن نقوم بحملة تسول لبضعة أيام وجمع ما يكفي لشراء الوقود، وافق مايكل على الفكرة ولكني رفضت مشاركتهم في أمر لم أعتد عليه، بالرغم من أنني لم أرفض يومًا ما كان يصلني أو يعطى لي من طعام أو نقود. قلت لهما إنني سأرافقهما، وسأبذل جهدًا في مشاركتهما، من غير تسول، وسأتولى مهمة قيادة المركبة إلى فيجاس حيث الشمس... وأشياء كثيرة أخرى.

نهض «توماس» وطلب من مايكل مرافقته في جولة تسول قد تستغرق اليوم كله. قمت من مكاني وأنا أقول

بأنني سأذهب للبحث عما يمكن حمله معنا من طعام. أخبرني توماس بمكان وقوف الفيات في الموقف القريب من الجسر الذي كنا ننام أسفله، وسلمني مفتاحها الصغير نصف الصدئ. تبين لي من منظرها الخارجي أن من الصعب أن تستمر في السير لمائة كيلومتر دون أن تتوقف تمامًا، فقد انتهي عمرها الافتراضي قبل عشرين عامًا، ولكن لم الاكتراث أصلًا، فما الذي يمكن أن نخسره في نهاية المطاف من مغامرتنا، لا شيء... كالعادة!

لم يكن مايكل ولا توماس قريبين ليسمعا ما كان يدور في بالي من أفكار عن الطريق وحالة المركبة، بعد أن قمت بتشغيل محركها، كأي محترف. تبين لي أن أبوابها بلا مفصلات، وعند فتحها فإنها تأخذ دورة كاملة وترتطم برفراف السيارة الأمامي. كما سرني أنها غير مزودة بحزام الأمان، لأن طرازها ربما يسبق زمن تزويد السيارات به.

كنت أعلم أن الطريق لفيجاس ليست بالقصيرة، وقطع المسافة في سيارة فيات صغيرة ومتهالكة قد يستغرق منا أيامًا، هذا إذا كنا سعيدي الحظ ولم نهلك أو تتعطل بنا في الطريق، فمن سيقف في منطقة غير مقطورة ليقدم يد المساعدة لثلاثة مشردين يقودون سيارة تعود للقرن الماضي؟

الرائع في حياة التشرد أن لا شيء تقريبًا يبدو ضروريّاً أو مهمًا. فبعد تجاوز مرحلة الجوع، وموت كل رغبة في التملك أو الاستحواذ على شيء والانتماء لمكان أو فريق أو جماعة، يصل المتشرد لمرحلة تشبه حالة انعدام الوزن التي يمر بها رواد الفضاء، مجرد جسد فقدَ وزنه وأصبح صاحبه يتقلب رأسًا على عقب في الهواء، غير قادر، أو راغب، على الثبات في مكان واحد والانتماء له، بل فراغ كامل بغير حدود، ولا التزام ولا إكراه ولا حتى قدرة على توجيه لكمة مثلًا لأي كان، أو حتى التلفظ بكلمات نابية، وكل هذا يخلق شعورًا بعدم

الاكتراث بأية مخاطرة. فعندما لا نمتلك شيئًا ولا ننتمي لأسرة أو كيان أو ناد، نفقد حتى القدرة على التملك لكوننا لا نمتلك أصلًا شخصية لها وجود رسمي من خلال بطاقة هوية أو رقم ضمان اجتماعي، أو انتماء لعمل أو وظيفة، أو ناد رياضي أو فريق عمل أو جمعية، أو حتى عنوان يمكن الاستدلال عليه، فإن رِجْلاه يمكن أن تقوداه لنهاية الأرض دون تفكير في العواقب، وهذه من مزايا التشرد الرائعة التي لا يعرفها إلا من مر بهذه التجربة.

عاد رفيقاي بأسرع مما كنت أتوقع وأخبرني مايكل بأنهما نجحا في جمع ثلاثين دولارًا وأن المبلغ يكفي لتغطية ثمن الوقود لمسافة طويلة فمحرك السيارة صغير ولا يستهلك الكثير. كان من المفترض أن نتجه للاس فيجاس فورًا، فلا شيء يمنعنا من ذلك فلا مواعيد مع أطباء، ولا نماذج طلب إجازة مطلوب تعبئتها، ولا أهل مطلوب توديعهم، ولا أبواب مطلوب إغلاقها، ولا

أية التزامات أخرى، ولكن شيئًا ما في نفس كل واحد منا؛ شيئًا من الماضي، من مرحلة ما قبل التشرد، جعلتنا نتريث، ولا نقفز لداخل السيارة ونمخر عباب الطريق الأسفلتي بتلك المركبة نصف المتهالكة، وتبين لي إن الأمر ربما يتطلب مرور أكثر من جيل التشرد التام ليصبح اتخاذ قرار الرحيل، أو ما شابهه، أكثر تلقائية وسهولة، فالغجر لم يصلوا لتلك المرحلة الكاملة من عدم الانتماء خلال جيل أو جيلين حتمًا، بل أخذ الأمر منهم وقتًا أطول بكثير.

وهكذا بدأت أول وأغرب رحلة لثلاثة مشردين من ولاية لأخرى.

لاس فيجاس

طالما سمعت عن لاس فيجاس، ولكن لا أنا ولا حتى رفيقا الدرب والتشرد، سبق لهما زيارتها، وما في مخيلتنا جميعًا عنها لا يزيد عما كنا نراه، في أزمنة غامرة، في بعض برامج التلفزيون وبعض أفلام السينما.

طريق السفر لم يكن سهلًا ولا قصيرًا، فسيارتنا صنعت لكي تكون بطيئة في سيرها، ولم نكن على عجلة من أمرنا، بعد أن فقد الوقت أهميته في حياتنا، وأصبح شيئًا من الماضي.

منظر المشرد يثير شفقة البعض أحيانًا، والخوف والريبة لدى البعض الآخر، ولكننا بشكل عام بشر مسالمون لا نؤذي أحدًا، فتعمد الأذى، أو إيقاعه على الآخرين، يأتي غالبًا من الرغبة في الاستحواذ على ما لديهم من مال أو طعام أو زوج وسيم أو امرأة جميلة تستحق المغامرة لنيلها، وهذه أمور ليست في أولويات

المشرد، أو لدىَّ أنا على الأقل. فالمشرد يبقى مسالمًا إلى أن يتورط في حالة إدمان على خمر أو مخدر، هنا يصبح خطرًا على محيطه، ولكن نهايته عادة ما تكون متوقعة وسريعة.

ربما تكون أمريكا البلد الأفضل للتشرد في العالم، فبإمكان مَن اختار أسلوب المعيشة هذا الجلوس على أحد مقاعد أية حديقة عامة دون أن يتعرض له أيّاً كان ويراقب الناس لساعات وساعات ويستمتع بمراقبتهم وهم يسرعون الخطى أو يتراكضون أمامه إما لقضاء حاجة لأنفسهم أو لأسرهم، أو للحاق بالقطار أو الطائرة أو الحافلة التالية قبل مغادرتها المحطة، أو لشراء الطعام من السوبرماركت قبل أن يغلق أبوابه، أو لأن عليه أن يكون في البيت في ساعة محددة قبل بدء برنامجه التلفزيوني المفضل، أو لكي لا تفوت عليه مشاهدة مباراة بيسبول بين فريق هذه الولاية والأخرى المنافسة لها، وجميع هذه الأولويات ومئات غيرها ليست في جدول أعمال

المشرد، الخالي تمامًا من أي عمل أو واجب مطلوب القيام به في اليوم التالي أو الشهر القادم، أو حتى بعد عام أو أكثر. وأنا أشبّه المشرد بالإنسان الأول الذي كان يعيش في غابات السافانا في أفريقيا، والذي كان في جنة بالفعل، كما سبق وقرأت في أحد الأبحاث. فعقل الإنسان مبرمج على ألا يعمل أبدًا، طالما حصل على كفايته من الطعام والدفء والأمان والجنس. وفي تلك الجنة كانت كل تلك الأمور والأشياء تتوفر له بسخاء، فلا هاجس جوع ولا خوف ولا تعب، فالفواكه لا تحتاج إلا لمن يمد يده ويلتقط منها ما يشاء. والأسماك تسبح في البحيرات لا تريد إلا من يصطادها، وكذلك الطرائد السهلة الصيد تنتشر في كل مكان، والطيور تملأ الفضاء فوقه. والحرارة معتدلة طوال العام بحيث يسهل النوم في أي مكان، ولا حاجة لبذل أي جهد، هي الجنة بكل معانيها، والتي فقدها الإنسان بعدها بقرون أو آلاف السنين نتيجة حروب أو طرد جماعة لأخرى منها، فحمل

كل من خسرها حنين العودة لها يومًا، وربما هذا الحنين هو الذي انقلب لحلم الجنة التي ورد ذكرها في الكتب المقدسة وفي الميثولوجيا القديمة. فالجنة هي بالفعل حيث لا مسئوليات تطير النوم من العين، ولا ارتباطات تتطلب ضبط ساعة المنبه عليها، ولا وجع رأس ولا أقراص بنادول، ولا شعور بالوحدة أو الكآبة أو القلق أو الخوف (الفوبيا) من الغرف المغلقة والارتفاعات الشاهقة أو من الفئران والصراصير والعناكب.... لا شيء من كل ذلك في حياة المشرد يمكن أن تخيفه أو تزعجه!

الرحيل

انطلقنا في صباح اليوم التالي، بعد أن اكتملت حاجتنا من الطعام والتي لم تزد عن كيس خبز وقطع جبنة ناشفة وكيس من الخيار وآخر من الطماطم. وصلنا بعد ساعتين من القيادة البطيئة لأول محطة وقود، وكنت بحاجة لقضاء حاجتي في حمام المطعم الصغير التابع للمحطة.

ذهب رفيقاي للتبول في الحرج القريب. لحسن الحظ كان الحمام أو المرحاض يقع في الجهة الخلفية من المطعم. لم أجلس منذ فترة طويلة على كرسي تواليت، وبالتالي أخذت وقتي غير مكترث لما كنت أسمعه من أصوات أقدام راغبي استخدام الحمام في الخارج، فهناك حمام آخر، وعليهم الانتظار، فلا شيء يدفعني للاستعجال.

لفت نظري، وأنا جالس على كرسي الحمام كتيب

مبلل مرمي في زاوية منه. لم أكترث لما عليه من بلل، بل نفضته وأخذت أقلب صفحاته، فقد كنت بحاجة لأن أسلي نفسي بشيء بانتظار نهاية الإمساك الحاد الذي كنت أعاني منه في تلك اللحظة.

بدأت بقراءة الكتيب بصعوبة، فقد أثَّر البلل، أو البول ربما، على بعض الكلمات وكان عليَّ تخمين أو استنتاج معناها، كنت أقرأ وأقلب الصفحات غير مدرك أن محتويات ذلك الكتيب ستدخلني في تجربة مثيرة وغير مسبوقة لاثنتين وسبعين ساعة، وربما لسنوات عدة بعدها.

كان عنوان الكتيب: أسرار لعبة البلاك جاك Jack Black. ربما لو لم نكن في طريقنا لمدنية لاس فيجاس، عاصمة القمار في العالم، لما اكترثت كثيرًا لمحتويات الكتيب المليء بالصور والرموز والفتيات نصف العاريات.

لم ألمس ورق اللعب أو الكوتشينة في حياتي ولم يسبق أن سمعت بالبلاك جاك، والتي عرفت من الكتيب

أنها من أكثر ألعاب القمار شهرة في كازينوهات مدينة لاس فيجاس الصاخبة، والتي لا تنام طوال ساعات الليل والنهار، وربما يكون هذا هو الذي دفع توماس لأن يقترح علينا الهجرة لها. وحيث أن فيجاس ستكون ملاذنا لفترة قد تطول فعليَّ الإلمام على الأقل بشيء يتعلق بألعاب القمار. أحسست فجأة، باهتماماتي الجديدة والمفاجأة، أنني أبتعد شيئًا ما عن التشرد، ولكن المدينة هي الأقرب، بصخبها وعدم انتظام ساعات نومها لحياتي، مع غياب تام لكل القواعد والالتزامات.

عرفت من مقدمة الكتيب أنه ليس معروفًا على الإطلاق من الذي اخترع أو وضع قواعد لعبة البلاك جاك، والمعروفة في دول أخرى بلعبة ال21. وأول إشارة ورد ذكرها عن هذه اللعبة كانت في رواية «دون كيشوت» للروائي الإسباني الأشهر «ميغيل دي سرفانتس»، فقد كان هذا الأديب مغامرًا ومقامرًا بطبعه، في رواياته وفي حياته الخاصة، ووضع شغفه بالقمار على لسان بطلين

من أبطال أحد رواياته الذين كانا شديدي البراعة في الخداع وفي التكسب من وراء ممارسة هذه اللعبة في حانات أشبيليه.

من قواعد هذه اللعبة ضرورة وجود عدد من اللاعبين، لا يقل عن واحد، يضاربون أو يقامرون ضد شخص آخر مقابلهم، ويكون عادة نادي القمار، أو من يمثله، والذي يقف في الجانب الآخر من الطاولة في مواجهة اللاعبين. وبالتالي لا يتنافس المقامرون أو اللاعبون مع بعضهم البعض ولا يمثلون فريقًا واحدًا ضد النادي، بل كل واحد منهم يقامر بماله وما بيده أو أمامه من «ورق لعب» ضد ممثل النادي، أو الديلر The Dealer. ونتيجة كل شوط تكون غالبًا أحد أربعة احتمالات، أو أكثر من احتمال واحد في نفس الوقت:

أن يخسر جميع اللاعبين ويربح النادي.

أن يربح جميع اللاعبين ويخسر النادي.

والاحتمال الثالث أن يربح النادي مع بعض اللاعبين

ويخسر مع البعض الآخر.

والاحتمال الرابع أن يتساوى النادي مع اللاعبين ولا يربح أو يخسر أحد، فتعاد اللعبة. وهنا لكل لاعب إما سحب ما راهن به من مال، أو زيادته أو إنقاصه، أو الخروج من الشوط مؤقتًا أو نهائيّاً بترك الطاولة والانتقال لغيرها.

بدأ الطرق على باب الحمام يتزايد، مع تزايد أصوات أقدام منتظري استخدامه من رواد المقهى أو المطعم والمسافرين الآخرين، وكان علي ترك مقعدي الوثير، والخروج دون أن أنهي ما دخلت الحمام من أجله، بعد أن سمعت صوت مايكل يناديني من مكان ما، فقد استمر الإمساك ومعه المغص، ولكن ما أن وقفت حتى كدت أنهار واقعًا في مكاني بعد أن تيبست ركبتاي من الجلوس الطويل في ذلك المكان.

وضعت الكتيب في جيب بنطالي الخلفي وخرجت من الحمام، فوجدت في الخارج بضعة رجال بالانتظار،

ولا شك أن منظري صدمهم وأنا خارج من المرحاض، وأعتقد من كان دوره بعدي قد تنازل عنه لغيره، أو تردد كثيرًا في الدخول واستخدام الحمام من بعدي دون أن يدرك أنني خرجت منه كما دخلته.

تفكيري في منظر الرجال خارج الحمام أنساني سماعي لصوت مايكل وهو يناديني، ربما لشعوري بأنهم سوف لن يتركوا المحطة من غيري فأنا قائد الرحلة، كوني الوحيد المؤهل لقيادة السيارة.

جلست تحت شجرة قصيرة ولكن ذات جذع عريض وأكملت القراءة من الكتيب:

تبين أن إشارات قليلة وردت عن هذه اللعبة في بعض المراجع منها إسبانية وأخرى فرنسية وإيطالية. وعندما نقل المهاجرون الإسبان هذه اللعبة لأمريكا، قامت دور القمار هناك بغرض تشجيع المغامرين على لعبها، بعرض مكافآت سخية لجعلها أكثر شعبية. وكانت إحدى تلك الحوافز عبارة عن مكافأة تبلغ عشرة دولارات لكل دولار

تمت المغامرة به إن حصل المقامر على ورقة الأيس Ace البستوني أو السبيث، مع ورقة الولد (الغلام) أو ال Jack من نفس الفئة أي البستوني، أي أن اللاعب يحصل على عشرة أضعاف ما قامر به من مال، ومن هنا اكتسبت اللعبة تسميتها ب «البلاك جاك». ومع أن المكافأة تم إلغاؤها تاليًا، بعد تحقيق الهدف منها في جذب المقامرين لها، إلا أن تسمية اللعبة ب«البلاك جاك» بقيت لصيقة بها في غالبية نوادي القمار في العالم حتى اليوم بالرغم من أن لا معنى للتسمية في عالم القمار.

عرفت من الكتيب أيضًا أن أول محاولة علمية ورياضية لاستنباط استراتيجية مثالية للعبة البلاك جاك كانت في سبتمبر 1956، عندما قام روجر بالدوين وويلبرت كانتي وهربرت مايزل وجيمس ماكديرموت بكتابة بحث بعنوان «الاستراتيجية المثالية في البلاك جاك» ونشر البحث في مجلة «الجمعية الإحصائية الأمريكية»، والتي

بينت الكيفية التي يمكن بها التغلب على الاحتمالات، والكسب في اللعبة من خلال اتباع استراتيجيات محددة. إلا أن نوادي القمار تحوطت تالية للأمر وقللت فرص الربح فيها.

حكايات الطريق

أحسست أنني نسيت نفسي بعيدًا على رفيقي الدرب. طويت الكتيب ووضعته في جيب بنطالي الخلفي، وذهبت أبحث عنهما، فوجدت مايكل يقف خارج المطعم، وبدا قلقًا لاختفائي الذي طال. سرني قلقه علي، فقد مرت فترة طويلة لم يفتقدني فيها أي كان، وعندما عرف أين كنت، وما عانيته خلال نصف ساعة من المغص المعوي والضغط الداخلي الذين لم يفلحا في إفراغ معدتي، وطابور الانتظار خارج دورة المياه، انتابته حالة ضحك هستيرية لم يكن لها داع، وعرفت بعدها، عندما انطلقنا بالسيارة، أنه اشترك مع توماس في تدخين سيجارة ماريجوانا معتبرة.

يمتاز توماس بشخصية محببة، بالرغم مما تبدو عليه من سمات الخشونة والفضاضة. لا يتكلم كثيرًا ولكنه ما يصدر عنه، على قلته، غالبًا ما يكون مسليا ومضحكا.

أخبرنا أن زوج والدته، نصف المُقعد، أعطاه يومًا مبلغًا من المال وقائمة مشتريات من السوبر ماركت، وأنه خرج من البيت ولم يعد له تاليًا أبدًا، ولا يزال زوج أمه، بعد عشر سنوات، بانتظار وصول الأغراض التي طلب منه شراءها! هنا انفجر الاثنان في ضحك متواصل بتأثير السيجارة العجيبة!

قال لي مايكل أنهم كانوا مجبرين على انتظاري ليس من منطلق محبة أو أخوة أو حتى فضول لمعرفة ما أصابني، بل لعدم قدرة أي منهما على قيادة السيارة بكفاءة، فالأول لا يعرف القيادة، والثاني ليس لديه تصريح صالح، وبعين واحدة، وفوق ذلك كان الاثنان نصف مخدرين. كما أخبرني مايكل أن منظرهما، وهم في تلك الحالة، يتسولون بين السيارات، أخاف صاحب محطة البنزين، الذي يمتلك المطعم والمقهى، ولكي يتخلص منهما بسرعة عرض أن يملأ خزان وقود الفيات بكل حاجتهم، لكي يغادروا سريعًا، وبذلك لم يضطروا

للتسول، ولكن هدف صاحب المحطة لم يتحقق، بسبب مكوثي الطويل في الحمام، فضاع كرمه سدى.

ناولاني لفافة خبز تحتوي على بعض من قطع اللحم اليابسة والباردة تناولتها بالرغم من أنني لم أكن أشعر بالجوع، فربما تنشط الشريحة معدتي الخاملة.

مررت بعلامة طريق بينت أننا سنصل إلى لاس فيجاس بعد 200 ميلًا، وهذا يعني أكثر من خمس ساعات أخرى من القيادة المتواصلة، ومن الصعب تحمل ذلك، فلا بد من الوقوف في أي مكان في البرية، قبل الوصول والبحث عن ملجأ في ضواحي المدينة لليلة قبل أن ينطلق كل منا في حال سبيله باحثًا عن مأوى أو مكان يتسكع فيه، بعد أن استقر قرارنا، وما أقل قرارات المشرد، في التخلص من الفيات بتركها لمصيرها في أي مكان.

مع اشتداد آلام المغص، وما كانت معدتي تصدره من أصوات، أوقفت السيارة على جانب الطريق وهرولت

للاختباء خلف شجرة ضخمة، عدت للسيارة بعد دقائق وأنا في حال أفضل. تبين لي فجأة أن التشرد ليس سهلًا، ولا يطيقه، أو بالأحرى يستمر فيه إلا من يتمتع بصحة جيدة، أما الآخرون فغالبًا ما تنتهي حياتهم موتى تحت الجسور أو على الطرقات أو على كراسي الحدائق العامة، وسعداء الحظ فقط يموتون في ملاجئ الولاية، فلا رحمة مع التشرد. ومن هنا شعرت بالقلق، ولا أدري كيف يمكن أن يصاب المتشرد بالقلق، ولكننا نبقى في نهاية الأمر بشرًا، فعندما أصيب مايكل بالإسهال، واضطررنا لأن نكرر توقفنا شعرنا جميعًا بالإزعاج، ويبدو أن ما تناولته ومايكل من طعام في ذلك المطعم كان عفنًا وغير صالح للاستهلاك البشري، وساهم عفنه في فك كربة معدتي وأساء لصحة صديقي، مايكل. أما توماس فقد بدا كالفيل، ولكن ببطن مضمور، فلم تؤثر عليه الشطيرة العفنة.

أوقفت السيارة عند حرج بدا جميلًا في عدم تناسق

أشجاره. وكانت هناك طاولة من الحجر وحولها مصاطب كالمقاعد مصنوعة من الكونكريت للجلوس عليها.

انزويت بعيدًا عن رفيقي وأخرجت أوراقي من الكيس البلاستيك وبدأت بتدوين ما تذكرته وأنا أمر بكل تلك الصحاري وبعض المناظر الجميلة.

يوم عدت من بيروت لأول مرة بعد زواجي من نوره احترت فيما أحمله بيدي لها. كانت إمكانياتي المادية متواضعة، وقع اختياري على سجادة صغيرة يمكن أن تكون لوحة جميلة تعلق على الحائط. واشتريت لوالدتها خفًا مغربي الطراز غير معروف أين صنع، واشتريت لوالدها لوحة اعتقدت أنها ستعجبه. أخبرني البائع بعد أن دفعت ثمنها أنها رسم حقيقي وليس تصويرًا، وأنها تقليد جيد للوحة بريشة الرسام اللبناني الشهير مصطفى فروخ. وقال لي إن ثمنها سيرتفع حتمًا إن توفى الرسام نفسه، والذي كان يعاني من المرض حينها، ومشرفًا على الموت.

صدقت كلامه، وكنت سأشتري اللوحة على أية حال. عرفت بعدها أن مصطفى فروخ كان واحدًا من أشهر رسامي لبنان، وكان بالفعل يشكو من مرض خطير في أواخر أيامه، ومات متأثرًا به، ولكن كان ذلك قبل شرائي للوحة بنصف قرن تقريبًا.

أعجب عمي باللوحة وشكرني عليها، معتقدًا أنها أصلية، دون أن يعرف من يكون مصطفى فروخ. دفعه إعجابه بها لأن يغير بروازها لواحد أغلى ثمنًا.

وفي يوم حضر بعض أهل زوجتي لزيارتنا، وتصادف جلوسي تحت تلك اللوحة. لاحظت أن أحد الضيوف، وكان الوحيد الذي بدا في كامل أناقته، ودل مظهره على الفهم، مقارنة بالبقية الذين حضروا معه، أنه كان يطيل النظر للوحة بين الحين والآخر، وتصادف جلوسه أمامي، واعتقدت أنه عرف الرسام، أو أسلوبه، وربما سيهنئ عمي على اقتنائه لواحدة من لوحات ذلك الرسام النادرة. تضايقت حينها من ذلك الضيف

لأنه كان يوجه لي أسئلة دقيقة عن عملي وينشغل عني بالنظر إلى اللوحة، محاولًا ربما تذكر أين شاهد الأصل منها. خشيت بالفعل من انفضاح أمري، وأن تظهر الحقيقة وكيف أن اللوحة غير حقيقية، بالرغم من أنني لم أدعي يومًا ذلك. استمر ذلك الخوف لفترة طالت ونحن نتبادل الحديث ولم يختفي تمامًا إلا بعد أن دعتنا أم نوره للعشاء، فتصادف أيضًا جلوسه على الكرسي المواجه لي، فاكتشفت ويا للسخرية أن لديه حَوَلُ بسيط في عينه اليمنى، وأن المسكين كان طوال الوقت ينظر لوجهي منتبهًا لما كنت أقوله، وكنت أعتقد طوال الوقت أنه كان ينظر للوحة التي كانت معلقة خلفي.

لسبب ما، لم أحاول يومًا أن أسرد تلك الحادثة لأحد، حتى أنتِ، وربما لا تزال تلك اللوحة في مكانها تشهد بقيمتها وبذوق «صهر البيت» الذي أحضرها!

الوصول

وصلنا بعد ساعات طوال وجهد لمشارف المدينة الأشهر في العالم، لاس فيجاس، عاصمة القمار الأولى والأهم. بدا واضحًا أن المدينة شبه جرداء، تختلف تماما عن طبيعة هيوستنا الخضراء، وأنها جزء من صحراء «موهافي» الضخمة، كما عرفت تاليًا. فلا أنهار ولا جسور ضخمة في المدينة يمكن الإيواء لها أو التخفي تحتها. كما تبين لنا أنه يصعب كثيرًا النوم بحرية في الأجزاء القريبة من شارعها الرئيسي، ذي ستريب The Strip، أو الشريط، وهو بالفعل شريط من المباني الفندقية الضخمة التي يقع في الدور الأرضي منها غالبًا كازينو كبير. فبسبب طبيعة نشاط المدينة القائم على القمار، وكم الأموال النقدية الهائلة التي تنتقل من يد ليد، فإن سلطات الأمن في المدينة لا تسمح بأية تجاوزات أو مخالفات للقانون، أو حتى التساهل مع غير المرغوب

بهم. كما أن عشرات ملايين مصابيح المدنية، التي هالنا بحق عددها، والتي تجعلها لا تنام طوال ساعات الليل والنهار، دفعتنا للابتعاد كثيرًا عن وسطها إن أردنا النوم بأمان، بعيدًا عن أعين دوريات الشرطة التي تجوب كل الأماكن. وما يثير العجب أيضًا أن هذه المدينة التي يزيد عدد سكانها عن مليوني نسمة بكثير لم يكن لها وجود قبل مائة عام فقط.

كان علينا أن نعود أدراجنا من منتصفها لأطرافها الجنوبية، بعد أن أصبح منظرنا مثيرًا للريبة بأشكالنا الرثة، ونحن نتجول في مركبة متهالكة، يدفع شكلها أي رجل شرطة لإيقافها والسؤال عن هويات أصحابها، وبالتالي كان علينا التخلص منها بأسرع ما يمكن.

وجدنا محطة وقود، وخلفها يقع حرج يمكن النوم بين أشجاره، كما يسهل علينا الحصول على حاجتنا من الماء من خراطيم المحطة، التي تستخدم لملىء برادات السيارات. وحيث أن المحطة تدار آليا بشكل كامل فقد

منحنا ذلك حرية تامة.

تزود رفيقاي بحاجتهما من السجائر من آلة صرف المواد في المحطة، واستلقينا جميعًا على الأرض، في الجانب الخلفي من السيارة، ولم يمر طويل وقت قبل أن نغفى جميعًا في سباتٍ عميق بعد رحلة طويلة ومنهكة.

الضياع

صحوت من النوم في ساعات الصباح الأولى، وصخب المدينة كان لا يزال على حاله. كنت أشعر بأني نلت كفايتي من النوم، وبحاجة لأن أمشي بعد ساعات الجلوس الطويلة داخل تلك السيارة الصغيرة، وأنا شبه متكور على نفسي.

أخذت أسير على غير هدى، وأنا أنظر خلفي بين الفترة والأخرى، لأطمئن لقدرتي على العودة لصاحبي، مهتديًا بأضواء محطة الوقود المميزة بقوة إبهارها على أطراف الصحراء المترامية.

كنت أشعر بالجوع، وهذا نادرًا ما يحصل معي، فمنذ سنوات أصبح النوم ببطن فارغة شبه عادة، ولا يعني الكثير، ولكن في تلك اللحظة انتابني شعور مختلف، فقد أحسست بمشاعر غريبة وكأن الزمن عاد بي لما قبل التشرد، وهذا ما لم أشعر به من قبل.

مررت بمبنى من طابق واحد، بدا شكله غريبًا فليس له أبواب ومفتوح بكامله على الشارع العام. كان أول كازينو قمار أراه في حياتي، فقد كانت مكائن المراهنة المزركشة الألوان، بأضوائها المتعددة، ورسوماتها الجذابة، تغري بالاقتراب منها، على الأقل للبحلقة في أشكالها الغريبة وما دون عليها من كلمات مثيرة لفضول لكل نفس بشرية تتوق لتحقيق كسب مالي سريع دون تعب حقيقي أو انتظار طويل، فما عليك سوى تلقيم تلك الآلات بما تحمل من نقود من خلال الثقب المخصص للمقامرة، أو المراهنة وستتولى الآلة القيام بما هو مطلوب منها، فبعد أن تضع المبلغ في الفتحة وتضغط على زر البدء حتى تبدأ دواليبها الداخلية بالدوران وتتقلب الصور المتكررة بداخلها، ثم تتوقف على سطر منها، فإن تشابهت الصور حصلت على شيء ما، وإن تضادت خسرت كل شيء، وهي على أية حال مبرمجة لكي يربح واحد فقط من بين كل ألف أو عشرة آلاف ممن يلعبون عليها، واللاعبون

يعرفون ذلك، ولكن الكل يمني النفس بأن يكون هو ذلك الواحد الذي ستدق نواقيس الجهاز وأجراسه من أجله معلنه فوزه بمبلغ كبير أو جائرة ثمينة.

أشحت بوجهي عن تلك الآلات، وخرجت من مدخل الكازينو، حيث لم يسمح لي رجل الأمن بتجاوز العتبة، واكتشفت للحظة أنني فقدت طريق العودة، بعد أن اختفت مصابيح محطة الوقود. كانت الشوارع خالية، فالساهرون في ساعات الصباح الأولى كانوا غالبًا قابعين أمام إحدى الآلات أو الألعاب داخل كازينوهات المدينة.

مشيت باتجاه خلته سيؤدي بي لرفيقي، ولكن كل ما كنت أمر به كان جديدًا لم يسبق أن شاهدته من قبل. غيرت الاتجاه ولكن ذلك أربكني أكثر، ولم أستطع الاهتداء لطريق العودة، وأصبحت ضائعًا في مدينة جديدة، وضحكت من غبائي بعد أن أحسست أنني أصبحت مشردًا فوق تشردي.

جلست على أول كرسي صادفني على الرصيف. كان خشبيّاً ومن غير ظهر، ولكنه كان أقل قسوة وأكثر راحة من الجلوس على الأرض... على الأرض؟ هذه أول مرة أفكر فيها بهذه الطريقة منذ قررت أن أصبح مشردًا، وأعقد مقارنة بين الجلوس على كرسي، أو مصطبة خشبية أو الجلوس على الأرض مثلًا وإسناد ظهري لجذع شجرة.

ازداد الشعور بالجوع، وبدأت أفكر في الطعام المحضر في البيت، الساخن والشهي بمختلف بهاراته، أستنشق بخاره وأشم رائحته قبل تناوله، ولكن لن أرفض الآن شطيرة لحم، ويمكن للطعام المنزلي الانتظار لبعض الوقت. مددت يدي في جيب بنطالي أتحسس ما معي من نقود، وهو شيء لم أقم بمثله منذ سنوات. أخرجت يدي وهي ممسكة ببضع أوراق نقدية. نظرت في مختلف الاتجاهات أبحث عن علامة لمطعم وجبات سريعة، وحتى بطيئة، ولكن لم أجد ما كنت أبحث عنه

في الاتجاهين غير صف طويل من كازينوهات القمار التي سوف لن يسمح لي رجال الأمن حتمًا بالاقتراب منها، دع عنك دخول أي منها. شعرت بالحيرة، فالجوع الغريب بداخلي أصبح له صوت، وشعور بشيء ما يتلوى في داخلي، يشبه فرامة اللحم التي تدور وتدور تطلب من يلقمها لحمًا لتقوم بتقطيعه وطحنه وإسكات الشعور بالجوع.

حاولت الانشغال بالتمدد على الكرسي الخشبي الطويل. تذكرت كتيب البلاك جاك فسحبته من جيب بنطالي الخلفي، وبدأت بالانشغال بقراءة قواعد اللعبة.

ورد في الكتيب إن قواعد اللعبة الأساسية هي واحدة في العالم أجمع، ولكن الاختلاف يظهر جليّاً، من دولة لأخرى، وأحيانًا كثيرة من كازينو لآخر، في طريقة المراهنة ومبلغ الرهان، وكيفية زيادته. كما تبين لي أيضًا أن تعقيدات اللعبة كثيرة، وليست بتلك السهولة التي بدت لي في بداية قراءة الكتيب. عرفت أن تحديد الربح في

لعبة البلاك جاك يتم غالبا على أساس 1 لواحد. فعند المقامرة مثلا بعشرة دولارات وتحقيق فوز فإن الكازينو يقوم بدفع مبلغ مماثل للمبلغ الذي تم الرهن عليه. ويمكن أثناء اللعب زيادة مبلغ الرهان، وبالتالي مضاعفة الخسارة أو الربح، متى ما وجد اللاعب أن فرصة التغلب على الديلر كبيرة. وهناك قواعد وتفرعات كثيرة لا يمكن حصرها أو معرفتها مع كل كازينو إلا عن طريق التجربة أو حفظ محتويات كتيب التعليمات، التي عادة ما تقوم نوادي القمار بتوفيرها للاعبين، أو بوضع لوحات تبين الحد الأدنى للرهان على أية طاولة، ومعلومات ضرورية أخرى تختلف من كازينو لآخر.

كما وجدت في الكتيب أن هناك الكثير من الاختلاف والتنوع في اللعبة نفسها من كازينو قمار لآخر، وهذا يعتمد على الأجهزة الرقابية الرسمية لهذه الأنشطة، ولقواعد اللعبة التي يضعها الكازينو نفسه، والتي تتوفر غالبًا عند الطلب، أو تكون بمتناول اللاعبين إن رغبوا

في الحصول على نسخة منها، والجهل بقواعد اللعب في كل كازينو أو نادي قمار ليس عذرًا. فمن المزايا التي يتمتع بها النادي على بقية اللاعبين على الطاولة أن كل لاعب يخرج من اللعبة عندما يتجاوز عدد نقاط ورق اللعب التي لديه عن 21 ويحدث ذلك قبل معرفة ما سيكون عليه مجموع نقاط الديلر. فالنادي يأخذ مبلغ من خسر الرهان فورًا حتى لو حصل الديلر في نهاية الشوط على عدد من النقاط يزيد عن 21، ويربح في هذه الحالة فقط اللاعب الذي بقي في الشوط ضمن الرقم 21، ولم يخرج خاسرًا.

سئمت من القراءة في ذلك الكتيب وعن شروط وقواعد لعبة البلاك جاك، فما علاقة مشرد مثلي بلعبة قمار مكلفة، وأنا أصلا ليس لدي ما يكفي من مال لشراء ملابس يمكن ارتدائها لكي يسمح لي بدخول الكازينو أو النادي، فكيف بمال للمقامرة به! ومع هذا لم أرمي الكتيب بل لسبب لا أعرفه احتفظت به في جيب

بنطالي الخلفي، وعندما دخلت دورة مياه أول محطة وقود صادفتني أخرجت الكتيب من جيبي ووضعته في زاوية من الحمّام وخرجت، فمن الحمّام خرج وإلى الحمّام عاد، وكان ذلك آخر عهدي به.

السلوت ماشين

جلست تحت شجرة ومددت رجلي متعبًا فقد ذكرتني حرارة شمس لاس فيجاس بحرارة الشام صيفًا. غالبني النوم فغفوت لفترة ربما طالت، وعندما استيقظت كانت الحرارة قد أصبحت مقبولة. شعرت بعطش شديد، ذكرني بتلك المرة التي عطشت فيها وأنا أسير تائهًا في حواري منطقة الميناء، في اللاذقية، ليس بعيدًا عن بيت عمتي.

ذهبت أبحث عن شيء أروي به ظمئي، وأنا لازلت في ضياعي، وأتساءل عن مصير رفيقاي، وفجأة شعرت بنسيم بارد يأتي من خلفي التفت فإذا بأبواب مشرعة يهب منها هواء منعشاً خفف قليلًا من ظمئي. اتجهت نحو مصدره فوجدت نفسي ثانية أمام أحد المكائن في كازينو بدا متواضعًا في شكله مقارنة بالذي سبق أن دخلته لأول مرة.

شيء ما دفعني للاقتراب من أقرب آلة رهان لرصيف الشارع، أو الباب الزجاجي. ما إن أحسست بانشغال رجل الأمن بالحديث مع زميله حتى التصقت بالآلة ووضعت دولارًا معدنيا في الفتحة المخصصة، وضغطت على الزر الكبير المدون عليه «ابدأ» Strat، الذي سبق أن رأيت بقية المراهنين يضغطون عليه بعد تلقيم الجهاز بالنقود. دارت العجلات داخل الآلة سريعًا، لم يستغرق الأمر أكثر من ثوان معدودة لتقف العجلة عن الدوران فجأة ويصدر من الآلة صوت جرس وأضواء حمراء وصفراء وزرقاء وغيرها يصعب عدها تتلألأ أمامي على الشاشة، ثم صوت قطع نقود معدنية تنهمر من فتحة أسفل لوحة التعليمات في الجهاز وتتجمع في حاوية معدنية تشبه نصف اسطوانة مفتوحة. نظرت حولي بعيون مرتابة، وعندما تبين لي ألا أحد اهتم بصدور أصوات الأجراس من «السلوت ماشين Slot Machine»، وهذا هو اسم هذه الآلات الذي عرفته تاليًا. كما كان

رجل الأمن مشغولًا بالحديث مع زميله، وبقية رواد الكازينو مشغولون بحالهم.

جمعت ما كان بالحاوية من قطع نقدية ووزعتها على مختلف جيوبي، وتسللت للخارج بكل هدوء، وأنا أحمل كل تلك الكمية من المعادن التي جعلتني أبدو متورمًا في أكثر من مكان، وكان ذلك يزيد من غرابة منظري كمتشرد، أو ربما كان ذلك هو الطبيعي في حالتي.

كنت أسير ودقات قلبي تتسارع، وحبات عرق بارد تنساب حول أذني لغرابة تصرفي أو للمبلغ الذي فزت به خلال ثوان معدودة، أو لشعوري بأن تلك ما هي إلا بداية تغيير ما في حياتي.

في خضم ذلك نسيت للحظات عطشي وجوعي، وربما كان ذلك بسبب الإدرينالين الذي أفرزته غدتي، وأنا أجمع كل تلك العملات من الآلة وأهرول جاريًا بها بعيدًا عن أعين رجل الأمن.

عدت في اليوم التالي لنفس المكان، وحاولت اللعب

على الآلة نفسها فنهرني حارس الأمن بسبب ملابسي الرثة، فلم أكرر المحاولة، بل ذهبت أبحث عن قميص رخيص الثمن وزوج من الأحذية، فلم أكن بحاجة لبنطال أو جوارب.

عدت للكازينو نفسه في اليوم التالي، وهنا لم ينتبه حارس الأمن أنني نفس المشرد الذي طرده بالأمس، فمنظري بدا في تلك اللحظة في عينيه، بقميص لا يزيد ثمنه عن خمسة دولارات وزوج أحذية رياضة مستعمل، أقل إثارة للشك والريبة والاحتقار! تذكرت ما سبق أن قرأته عن تأثير ما نرتديه على الآخرين. فلو قام شخص يرتدي أفخر الملابس وبكامل أناقته بعبور الشارع في نقطة غير مسموح فيها عبور المشاة فغالبًا ما سيتبعه البعض مرتكبين المخالفة نفسها بسبب «إحترامهم» أو ثقتهم بتصرف الرجل الأنيق. ولكن لو قام الشخص نفسه، وهو مرتد هذه المرة ملابس رثة، بعبور الطريق من المكان الخطأ فغالبًا سوف لن يتبعه أحد من المشاة.

ولو أدلى الشخص الأول، صاحب الهندام الجيد، برأي في جمع، وخالفه آخر بهندام رث فالأغلب أن الجمع سيعطي الأول انتباها أكبر، بصرف النظر عمن سيكون في النهاية صاحب الحجة الأكبر.

جلست أمام نفس الآلة، وسمعت صدور الرنين منها عدة مرات، ولا أعرف كم ربحت، ولم أكن أدري ما يجب القيام به أو التصرف إزاء كل ما تجمع لدي من العملات المعدنية التي يصعب جدًا الاحتفاظ بها أو حملها بسهولة، مع كل ما كنت أحمله منها في جيوبي. لاحظ أحد العاملين في الكازينو ارتباكي فاقترب مني وأخبرني أن بإمكاني الذهاب للصندوق لاستبدال ما لدي من عملة نقدية بدولارات ورقية، وعندما بينت له جهلي وعدم فهمي لما يعنيه، طلب مني أن أتبعه ليدلني على صراف الكازينو أو الصندوق. تبعته وأنا أنظر حولي لعالم لم أكن أعرف بوجوده. أوقفته بلمسه من يدي على كتفه وطلبت منه ألا يسرع الخطى، فما كنت تراه كان

يبدو كعالم سري غريب أو شريط سينمائي لفيلم خيالي لا أرغب في أن ينتهي سريعًا.

عشرات لا بل مئات الوجوه الضاحكة والمبتسمة والمتعبة والصامتة والمنهكة منهمكة في اللعب على مختلف الأجهزة وعلى طاولات القمار. الكل مشغول بحاله، فنادرا ما تجد لاعبا يتحدث مع غيره. كما رأيت صفوفا طويلة من تلك الآلات وفي كل زاوية وممر. كما رأيت مجموعة تجلس على مقاعد وثيرة تحتسي الشراب وتدخن بشراهة وهي تراقب شاشات عرض كبيرة تظهر عليها أرقام ملونة لتختفي وتظهر غيرها، وآخرون منهمكون في النقر على شاشات إلكترونية عليها مختلف الأرقام، وجمع كبير يرتفع صخبه وهو ملتصق بطرف طاولة بيضاوية كبيرة الحجم يقوم أحدهم برمي قطعتي نرد على قطعة قماش خضراء عليها مختلف الحروف والأرقام لتتعالى بعدها صيحات الحضور لسبب لم أدركه، وآخرون يجلسون بصمت في

نصف دائرة حول طاولة بيضاوية، يقابلهم في نصف الدائرة الآخر ما يماثل عددهم، ويقف بين الفريقين موظف يقوم بإدارة اللعبة، وآخر يجلس على كرسي عالي الأرجل وكأنه يراقب ما يجري على الطاولة البيضاوية، وكيف يقوم لاعب بإخراج أو سحب أوراق لعب من علبة مستطيلة يعطي واحدة منها لجانب من الطاولة وأخرى للجانب المقابل، وهكذا. أفراد ومجموعات من البشر من مختلف الأجناس والأعراق ذكورًا وإناثًا صغارًا وكبارًا والكل مشغول عن الآخر في حاله. ثم رأيت جمعا حول طاولة في جزء منها ما يشبه الصينية المعدنية التي تدور ربما على كريات من الصلب، «بول بيرغن» صغيرة ودقيقة، وعلى الصينية رسوم وأرقام، ومقابلها طاولة ذات قماش أخضر يجلس بضعة مقامرين حولها، وعليها نفس الأرقام المدونة على الصينية المعندية، وهنا أيضًا موظف يقوم بإدارة اللعبة وآخر يراقب الجمع وما يجري أمامه من على كرسيه المرتفع.

أوقفني العامل الذي تبرع بأن يدلني على الصندوق ورفع إصبعه للسقف مشيرًا لكريات نصف دائرية وقال بأنها كاميرات تقوم بمراقبة كل ما يجري في الكازينو، ومنتشرة في كل زاوية تغطي كل مكان بلا استثناء، فهززت رأسي مدركًا ما قصد، وتبعته للصندوق، وأنا أتلفت يمنة ويسرة متعجبًا من كل ما أراه من جديد وعجيب وغريب. فتيات جميلات تتنقل بين طاولات اللعب واللاعبين وهن يحملن صوان أنيقة مختلف المرطبات والمنبهات والسجائر.

كان الطريق للصندوق قصيرًا في مسافته طويلًا جدًا بما رأيته، وكأنه عالم سري يقع تحت الأرض بالرغم من أنه كان على نفس مستوى الشارع الذي دخلت منه، وكان من الممكن أن يعيش الإنسان حياته كلها ويموت دون أن يخطر على باله وجود مثل هذا العالم الصاخب والمثير على بعد خطوات من رصيف الطريق.

أوصلني العامل للصندوق فطلبت منه الانتظار

للحظة. وضعت سطل البلاستيك الذي أحضره العامل، والذي احتوى على قطع العملة المعدنية، وضعتها أمام موظف الصندوق وأخذت من السطل ملئ يدي من القطع النقدية وأعطيتها للعامل، فشكرني بطريقة من لم يكن يتوقع شيئًا من شخص مثلي، وكان استغرابي من تصرفي أكبر، فهذه أول مرة في حياتي أدفع فيها إكرامية بذلك القدر!!

التفكير

وقفت أمام محل الشطائر الساخنة ومددت يدي وأخذت واحدة واتجهت للصندوق لدفع ثمنها، مظهري الرث ورائحة العرق التي لم ينجح قماش قميصي الجديد وقف تسربها، والتي كانت تسبقني دفعت البائع لقبض الثمن مني، وطلب خروجي فورًا، مطرودًا بما كنت أحمل.

شعرت بالخجل من نفسي، وأيضًا لأول مرة منذ زمن، فقد كنت راضيًا بتشردي ولكن هذا الرضا أصبح يمثل عبئًا، وينحسر رويدًا رويدًا، وإن ببطء شديد.

كنت أرغب في تناول الشطيرة مع علبة مشروب غازي، ولكن ذلك البائع اللعين منعني من إكمال متعتي.

جلست على الرصيف واسندت ظهري للفراغ، وبدأت بقضم الشطيرة. كان طعمها مختلفًا، وأحسست أن واحدة لن تكفيني أو تسد جوعي، ففرامة الأكل بداخلي بدت بحاجة لكمية أكبر من الطعام فقد أتعبها الدوران

بلا طائل.

أخذت أفكر فيما يجب القيام به، فقد كان مبلغ الخمسمائة دولار التي أصبحت أحمله يشغلني، فلو علم الأشقياء بأنني أحملها لما ترددوا في إجباري بتهديد السلاح على التخلي عنها، فمن الذي سيدافع عن مشرد أو تعنيه سلامته.

شعرت لحظتها بالحنين إليك يا نوره، وبالحاجة لأن أمسك بيدك وأذهب بك إلى بائع الشطائر وأشتري شطيرتين مختلفتي الطعم، واحدة لك والأخرى لي ونتناوب على قضمهما. أحسست بالحاجة لأن أغسل وجهي بماء بارد، ينعشني ويزيل ما تجمع من عرق على وجهي ومن غشاوة على عيني، ولكني أحسست بأنك ربما لن تقبلي بي، وأنت الآن بعيدة عني، ولا أعرف، بعد كل هذه السنوات، ما حل بك، وهل سترضي بعودتي بعد أن تركتك مع الذل والهوان، بلا عون ولا مال؟ وماذا عن كل المنغصات التي هربت منها، الفواتير وبطاقات

الائتمان، وإيجاد وظيفة، والقيام بإصلاح خراب السيارة، وكل الأشياء الأخرى التي كنتِ تكرهين أدائها، وأجبرتك، بفراقي، على أن تقومين بها.

كنت أظن أنني قطعت صلتي بهذه الأمور إلى الأبد، ولا أدري لم أصبحت أفكر بها ثانية، ولم أصبحت تطفو على سطح ذاكرتي المرة تلو الأخرى!

لا بد أن شيئًا تغير، ربما هي الثروة التي أصبحت أكرر دس يدي في جيبي لتحسسها والتيقن من وجودها، مغالبًا رغبة ملحة في أن أخرجها وأبدأ بعدها أمام الناس. لا أتذكر أنني امتلكت مثل ذلك القدر من المال منذ سنوات، دون أن يكون عليَّ دفع شيء منها لأي كان أو سداد دين أو ثمن فاتورة. حتى كلمة «امتلكت» هي جديدة بالنسبة لمتشرد، فالتشرد هو اللا انتماء، واللا امتلاك واللامبالاة بأي حدث أو خبر.

كان يجب التخلص من هذه النقود اللعينة، فلست بحاجة لشيء غير الطعام وهو متوفر أينما ذهبت وطلبت

شيئًا أسد به رمقي. وطقس لاس فيجاس المعتدل مساء يسهل فيه النوم بأي مكان، خاصة في الأجزاء شبه البعيدة منه عن العمران وصخب الكازينوهات وأعين رجال أمن المدينة والفنادق.

الإدمان

شيء ما بداخلي أصبح يدفعني بقوة للعودة لذلك الكازينو اللعين، ووضع كل ما أملك في تلك الآلة الجهنمية لتبتلع ما معي من نقود من أجل أن أعود كما كنت، «برهان» المعدم واللامنتمي. أصبحت أسرع الخطي باتجاه الشارع الذي اعتقدت أن الكازينو يقع في وسطه. لفتت نظري ساعة معلقة على مدخل مبنى سكني، كانت تشير للخامسة عصرًا، وهنا تذكرت أنني لم أنم منذ فجر اليوم، أي منذ أكثر من 14 ساعة، ولكن هذه الملاحظة جعلتني أسّرع الخطى أكثر لأصل للكازينو وأتخلص مما معي من نقود، فقد أخافني ما اكتشفته من أنني أصبحت أتذكر منذ متى لم أنم، وهذا أمر كان خارج تفكيري تمامًا منذ تشردي الجميل، فمواعيد النوم لم تكن تعني لي شيئًا أصلًا!

وصلت للشارع ولكن لم أستطع تحديد الكازينو الذي

كنت فيه قبلها بساعات، فجميعها أصبحت الآن متشابهة، وكأن آلات الرهان فيها تود أن تستفرغ ما فيها على الرصيف، ولا أدري ما الذي خلق بداخلي هذا الشعور. وقفت أمام إحداها وكانت الأكبر، فربما يحتاج اللعب فيها لمبالغ أعلى، وهذا يعني أنني سأنتهي من التخلص مما معي من نقود بسرعة أكبر.

وضعت ورقة العشرة دولارات في الفتحة المخصصة وضغطت على زر البدء. أحسست بيد ثقيلة تربت على كتفي، التفت فإذا هي يد رجل الأمن الذي كان يشير بيده الأخرى بما يعني ضرورة مغادرتي المكان، ولكن نظراتي المتوسلة، وبدء دوران دولاب الحظ بداخل الآلة جعلته ينتظر لثوان معدودة، وما أن صمت كل شيء فيها، إعلانًا آليًا منها بأنني خسرت ما ألقمته لها من مال، تركت المكان بهدوء.

ابتعدت بضع خطوات، وإذ برجل الأمن يلحق به ويقول: إن قمت بتشذيب ذقنك الطويلة ومشطت شعر

رأسك فسأتغاضى عن بنطالك المتسخ ورائحتك القوية وأسمح لك باللعب. اذهب الآن لحال سبيلك واغتسل قليلًا. لم ينهي جملته تلك إلا وصرير توقف دواليب سيارة فجأة يزيد من صخب شارع الكازينوهات، وأصوات الأغاني والموسيقى الصادر من راديو السيارة مختلطًا بمن يناديني: برهان ...برهان .. أين ذهبت يا رجل، إننا نبحث عنك منذ ساعات؟ كان ذلك صوت صديقي مايكل، ولا أدري لَم لم أفرح كثيرًا بلقائهم المفاجئ، وبصورة لا إرادية وضعت يدي في جيب بنطالي خوفًا من طلبهم مشاركتي في «ثروتي» الجديدة. ترجل توماس من وراء المقود وطلب مني تولي قيادة الفيات، وقال إنه اضطر لأن يقودها في سعيهم للبحث عني، وإنهما لم يعبئا كثيرًا بالنتائج، فأقصى ما يمكن أن يحدث لهما هو إيداعهما السجن، ومصادرة سيارة يودوا أصلا التخلص منها، وفي كلا الحالتين كانا سيكونان سعيدين بالأمر.

جلست خلف مقود الفيات وانطلقت أمخر بها عباب

الشارع الواسع وكأننا قراصنة بر نغزو كازينوهات صحراء لاس فيجاس!

أخبرني مايكل بأنهم فوجئوا بغيابي من «المخيم»، هكذا كان الاتفاق على تسمية المكان الذي ركنا به السيارة لأول مرة، والذي اخترناه مأوى لليلتنا تلك. وكيف أنهما ذهبا لمستشفى المنطقة القريب، وانتظروا خارجه، بعد أن منعهم الحراس من الاقتراب من مدخله بحجة أنه مستشفى خاص، وأنهم سألوا أحد رجال الأمن عني فنفى رؤيته لمشرد يحاول دخول المستشفى، وما كانوا أصلًا ليسمحوا لأمثاله بتلقي العلاج في ذلك المكان.

كما أخبرني مايكل أنهم ترددوا كثيرًا في الإبلاغ عن غيابي من المخيم، فمن الذي سيهتم، في هذه المدنية التي لا قلب لها، بمصير مشرد ترك النوم على الأرض، وقرر أن يهيم على وجهه؟ خاصة أنه لم يكن يعرف اسمي الكامل. أخبرني مايكل بالكثير، ولكن توماس لم

ينطق بحرف فلم يكن مصيري يعني له شيئًا، ولا يلام على ذلك طبعًا، فتصرفه متوقع فهو مشرد بامتياز كما أنه قليل الكلام، وكان في تلك اللحظة على أية حال مشغولًا بلف سيجارة ماريجوانا، بعد أن ترك مهمة قيادة الصاروخ الفيات لغيره، وتعب طوال الوقت وهو يحاول تجنب دوريات الشرطة أو المرور، قبل العثور علي.

قال لي مايكل إنهم حصلوا على بضع علب بيرة وكيس من الفول السوداني المملح، وإنهم في طريقهم للبحث عن حديقة عامة والجلوس فيها وشرب البيرة، والاغتسال في الحديقة قبل موعد إغلاق أبوابها، مع اقتراب الوقت من العاشرة مساء، أو هذا ما اعتقد. هززت رأسي موافقًا، وأنا أقاوم رغبة شديدة في إعلامهم بما أصبحت أملكه من ثروة في جيبي بنطالي. ولكني أجلّت ذلك بصعوبة، وأخبرت مايكل بحاجتي لأن أخلو لنفسي بعض الوقت على أحد كراسي الحديقة وأدون أحداث الأيام القليلة التي مررت بها، وأضيفها لبقية ما كنت أحتفظ به من

أوراق في كيس بلاستيك أضعه تحت قميصي.

عودتهم، أو عودتي لهم، أعادتني لانتمائي وللتشرد الذي كدت أن أهجره، وغمرني إحساس بالراحة، مع بعض التحفظ وأنا أفكر في هذا الأمر، ولكن الدولارات لا زالت في جيبي، ورغبتي في التخلص منها بطريقة تعيدني لتشردي كانت لا تزال تقلقني، وأفكار متضاربة تنهشني بصورة غير مسبوقة.

يبدو أنني غفوت وأنا أكتب، فعندما أفقت من غفوتي كانت الأوراق التي دونت عليها آخر ما حصل معي مبعثرة حولي وقلم الرصاص لا يزال متيبسًا بين أصابعي التي رفضت سقوطه منها.

استعدت حلمًا رائعًا، ربما لم أكن أرغب في أن ينتهي. كنت أراك مستلقية على بطنك بجانبي في غرفتنا ببيت دمشق. كانت المرة الأولى التي تنامي فيها عارية. استيقظت فجأة فوجدت نفسي غارقا سائل دافئ بين فخذي.

فتذكرت أبيات شعر أندلسية، سبق أن حفظتها عن ظهر قلب، تغنى بها عدد من مشاهير المطربين، والتي تقول:

جاءت معذبتي من غيهب الغسق كأنها الكوكب الدري في الأفق فقلت نوّرتِ يا خير زائرة أما خشيت من الحراس في الطرقِ قالت ودمعُ العينِ يسبقها من يركبِ البحرَ لا يخشى من الغرقِ فقلت هذي أحاديثٌ ملفقة موضوعة قد أتت من قول مختلق فقالت وحق عيوني أعزّ من قسمٍ وما على جبهتي من لؤلؤ الرمق إني أحبك حبًا لا نفاذ له ما دام في مهجتي شيء من الرمق فقمت ولهانَ من وجدي أقبلها زحتُ اللثام رأيتُ البدر معتنقِ قبلتها قبلتني وهي قائلةٌ قبّلت خدّي فلا تبخل على عنقي قلت العناق حرامٌ في مذاهبنا قالت وإن يكُ ذلك فاجعله في عنقي

البداية

كان ما يصدر من شخير من رفيقاي دلالة على استغراقهما في نوم عميق. ذهبت للفيات وأخرجت الصندوق المعدني الذي كنت أحتفظ بداخلة بكل ما لدي من متاع الدنيا. خلعت قميصي القديم وبنطالي ووضعتهما بداخل الصندوق مع عجلة عربتي القديمة. التقطت من على كرسي الحديقة صحيفة يوم الأحد الضخمة بملحقاتها، التي كنت أتصفحها قبل أن أستخدمها، وهي ملفوفة، كوسادة، ووضعتها داخل الصندوق المعدني، وحفرت خلف الشجرة حفرة دفنتها فيها، وعدت لمكاني وأنا ألهث، ليس تعبًا بل بسبب الضغط النفسي الذي نتج عن تبعات القرار الذي كنت أنوي الإقدام عليه، أو ربما من الحلم الغريب الذي رأيته في منامي في غير وقته ولا مكانه.

تركت رفيقاي خلفي بعد أن ارتديت قميص الخمس

دولارات واتجهت صوب منطقة الكازينوهات، وفكرة غريبة تدور في رأسي. علي التخلص من المال الذي معي بأية طريقة كانت، إن أردت استعادة الهدوء الذي كان يسكنني وأنا مع مايكل وتوماس في محراب التشرد.

لا أدري كم مضى علي وأنا أدور بين طاولات وأجهزة القمار وأتفرس في وجوه مئات الرواد وأرتطم ببعضهم في الممرات الضيقة. جلست أكثر من مرة وتناولت أكثر من مرطب غازي، ليس لعطشي بل لما كنت أشعر من تنمل في قدماي التي أصبحتا فجأة متعبتين ولا تحملاني، وهي أعراض لم أكن أشتكي منها من قبل. كما أصبحت منذ الصباح أسعل بطريقة غريبة مُصدرًا صوتًا وكأنه نباح.

تعبي دفعني لأن أتخذ قراري في اللحظة نفسها التي قام فيها مقامر عن أحد طاولات البلاك جاك فقررت أن أجلس مكانه. سألني الديلر إن كنت أود اللعب فهززت رأسي وقمت بعمل إشارة من يدي ورأسي فهم منها أنني

أطلب منه أن يمهلني قليلًا.

قمت بمراقبة طريقة اللعب لبضع دقائق ومقارنة ما كنت أشاهده أمام بما سبق وأن قرأته في ذلك الكتيب، أخرجت كومة الدولارات من جيبي ومددت يدي بها للديلر، وأنا أقول له إنني مبتدئ في اللعبة وعليه أن يساعدني قدر استطاعته، فهز رأسه موافقًا، ولكنه رفض استلام المال مني، أشار لي بيده طالبًا أن أضع المبلغ أمامه على الطاولة.

وضعت الدولارات أمامي، وعندما انتهى الشوط طلب مني الديلر أن أبقيها كما هي على الطاولة وسيأخذها لعدها، فهذا من قواعد للعب في أي كازينو، وعرفت بعدها أهمية ذلك حيث أن هذا يتيح لكاميرات المراقبة تصوير كل شيء.

تبين لي أن لا أحد يستخدم الدولارات في اللعب وعليه استبدالها على الطاولة أو من الصندوق ب»فيش» وهي قطع بلاستيكية مستديرة أو مربعة أو مستطيلة

مختلفة الألوان، ومدون على كل واحدة ما تمثله من قيمة، والتي يمكن أخذها، أو شرائها من الصندوق في أي وقت أو استبدالها بعملة حقيقية، أو الاحتفاظ بها لأية فترة كانت واستعمالها للعب في أي وقت، فهي العملة التي يتم تداولها داخل الكازينو، وليس الأموال النقدية، إلا في بعض آلات السلوت.

ناولني الديلر مجموعة من الفيش أو ال Chips بدلًا من الدولارات النقدية. تفحصت الفيش لأعرف قيمة كل واحدة وعندما سألني إن كنت أود اللعب هززت رأسي بالإيجاب فقال بأنه سيبين لي الطريقة دون أن يتدخل في قراري النهائي فيما يتعلق بما أود المراهنة عليه، وإن مبلغ الرهان يجب أن لا يقل عن عشرة دولارات في الشوط أو المرة الواحدة.

نظرت لمن يجلس على يميني فوجدت أنه وضع فيشة عشرة دولار ضمن دائرة على الطاولة الخضراء فقمت بالشيء ذاته.

وضع الديلر أمامي ورقتي لعب كانت واحدة تحمل صورة الملك والأخرى عشرة، أي أن مجموع ما معي من نقاط يساوي عشرين نقطة، فكل صورة تحتسب عشرة. وأعطى بقية اللاعبين ورقتي لعب لكل منهما، ووضع أمامه ورقة مكشوفة وأخرى مغطاة، وكانت المكشوفة تبين العدد 7. نظر إلي الذي على يميني، والذي عرف قلة خبرتي، وقال أن بإمكاني فصل الورقتين وزيادة رهاني بمبلغ يماثل ما سبق أن راهنت به أية عشرة دولارات أخرى. نظرت للديلر متسائلًا فهز رأسه موافقًا على النصيحة التي سمعتها. قت بفصل الورقتين في صندوقين مختلفين فأعطاني ورقة عشرة على الصندوق الأول وعشرة ثانية على الصندوق الثاني فأصبح لدي 20 نقطة في كل صندوق رهان.

بعد أن انتهى الديلر من إعطاء كل لاعب ما طلب من ورق كشف ورقته المغطاة فإذا هي صورة، أي أصبح مجموع ما لديه 17 نقطة، ولا يحق له بالتالي سحب

ورقة ثالثة، فهذا هو الحد الأعلى الذي عليه التوقف عنده وعدم سحب أية أوراق لعب لنفسه، وهذا غالبًا ما يكون في صالح غالبية اللاعبين. وكام مجموع ما لدي في كل صندوق أعلى بعدد الأرقام منه، وبالتالي كسبت الرهان مضاعفًا، وربح بقية اللاعبين أيضًا، إلا واحد خرج خاسرًا من بداية الشوط.

لا أدري كم مضى من الوقت وأنا ألعب فلا الكازينو لديه إحساس أو شعور بالوقت ولا للوقت أهمية عندي، فقد كنت أشعر بنشاط غريب، ولم أفرح أو أرتبك لما تجمع أمامي من فيش، ولكن المبلغ كان كبيرًا بالفعل فقد كان الحظ معي أغلب الوقت.

أحسست فجأة أن هناك من يراقبني، قد يكون رجل أمن أو موظف يراقب ما أفعل. كان يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق أنيقة، طويل القامة عريض المنكبين، ولكن لا شيء في محياه يدل على أنه رجل أمن، ولا أدري لم شعرت أنه قد يكون أحد مسئولي الكازينو.

عندما لاحظ أنني شعرت بأنه يراقبني اقترب مني عارضًا خدماته، وعما إذا كنت بحاجة لشراب أو كأس من البيرة أو القهوة.

اكتفيت بشكره برفع يدي. أحسست أن الوقت ربما قد حان لأن أتوقف عن اللعب. قمت واقفًا وبدأت بوضع كميات الفيش في جيبي فسألني الديلر، وكان الثالث الذي يأتي على نفس طاولة اللعب أثناء وجودي، إن كنت أود التوقف عن اللعب فهززت رأسي نافيًا وقلت له بأنني أود الذهاب إلى دورة المياه، فقال إن بإمكاني ترك الفيش على الطاولة كما هي، فكل شيء مراقب، وسيبقى مكاني على طاولة القمار محجوزًا.

عدت من الحمام بعد أن غسلت وجهي جيدًا بالماء والصابون، ولأول مرة منذ فترة طويلة، غمرني شعور بالراحة أو القدرة على السير مرتفع الرأس، شعور لم أعرف ما يماثله منذ سنوات...!

عدت لطاولة اللعب فوجدت أن من كان عليها قد

غادرها، فجلست وحيدًا، ولم يرغب أحد في الجلوس معي، ربما لشكلي الغريب مقارنة ببقية رواد الكازينو، أو ربما لأن أنوار الصباح بدأت تتسلل لداخل الكازينو من الأبواب الكبيرة المشرعة على الشارع، أو ربما بسبب المبلغ الكبير الذي تجمع أمامي فأصبح البقية ربما يشعرون بالحرج من الجلوس مع من لديه كل ذلك المال وهم لا يمتلكون ما يماثله، أو هذا ما اعتقدته في حينه.

لم يغادرني الحظ، بل استمر معي واستمر الربح، فكلما زادت رغبتي في التخلص مما لدي من فيش، عن طريق زيادة مبلغ الرهان، بغية العودة لرفيقي قبل أن يستيقظا من النوم زاد عدد الفيش، وخاصة من الفئات الكبيرة أمامي.

انتبهت لأمر غريب. دخلت هذه المرة الكازينو برغبة من يود خسارة ما معه من مال بغية العودة لسابق حياته، هذا الشعور بعدم الاكتراث، دفعني لمخالفة كل قواعد لعبة البلاك جاك، التي على من يريد أن يربح فيها

ضرورة اتباعها، والتي سبق أن اطلعت عليها في ذلك الكتيب الذي وجدته في حمام محطة الوقود، فكلما لعبت ضد تلك القواعد كلما زادت أرباحي وزادت معها قطع الفيش لدي، ومعها زادت رغبتي في التخلص منها.

كان الديلر وبعض الفضوليين حول الطاولة يستغربون كثيرًا من طريقتي «غير الأرثوذكسية» أو التقليدية في الرهان. فعندما يكون لدى الديلر ورقة من عشر نقاط، واحتمال أن تكون الورقة المغطاة أيضًا عشرة أو قريبًا منها، ويكون لدي 18 أو 19 نقطه هنا يجب أن أكتفي، ولكني كنت أخالف وأطلب ورقة إضافية ويسعفني الحظ غالبًا وتكون ورقة من نقطة أو نقطتين فيصبح ما لدي إما عشرين نقطة أو واحد وعشرين، وهنا يصبح لدي احتمال كبير أن أتساوى مع الديلر، وبالتالي لا أخسر رهاني، أو أن أربح الرهان، إن كان عدد ما معي يزيد عما معه.

كما كنت أكسب حتى عندما يكون مجموع ما لدي

15 ولدى الديلر ورقة 5 وورقة أخرى مغطاة، حيث كنت أطلب ورقة إضافية وغالبًا ما أكسب..! باختصار كنت أطلب أوراق إضافية في الوقت الذي كان يجب أن أتوقف عن طلب شيء، أو لا أطلب شيئًا وأكتفي بما لدي من نقاط في الوقت الذي كان يجب فيه طلب أوراق إضافية، فهكذا كان بقية اللاعبين يتصرفون وهذا ما كانت تقوله قواعد اللعبة، ولكني كنت لا شعوريّاً ألعب عكس التيار وعكس القواعد وعكس الأصول، وغالبًا ليس بنفسية من يود الربح، بل بنفسيه من يود التخلص مما تجمع أمامه من أكوام الفيش التي أصبح في حيرة في كيفية التصرف بها أو حملها، مع إحساس مفاجئ بالجوع وشيء من التعب.

قلت للديلر بأنني سأتوقف عن اللعب لتناول شيء ما، فرفع هذا رأسه وتبادل النظرات مع شخص آخر ربما كان يقف غير بعيد عني، وربما كان يراقبني عن كثب، حيث كنت أشعر بأن أعين كثيرة تراقب تصرفاتي،

خاصة وأن عموم مظهري لم يكن يتناسب مع ما تجمع أمامي من ثروة، وفي كازينو بكل تلك الفخامة.

تقدم لي رجل أنيق الملبس والمظهر، ومد يده مصافحًا، مقدمًا نفسه ب «بوب» وأخبرني أنه أحد المدراء في الكازينو وعلى استعداد لمساعدتي في أي شيء أريده. طلبت منه سطلًا أو علبه لأحمل ما أمامي من فيش للصندوق، فقال إنني لست بحاجة لذلك فكل ما يجب القيام به هو إعطاء الديلر كل ما لدي، وسيحولها إلى فئات أعلى وأقل سهولة في الحمل إلى الصندوق وتحويلها هناك إلى دولارات نقدية أو الاحتفاظ بها أمانه في حسابي لديهم للمرة التالية التي أود اللعب فيها. وقال أن بإمكاني تحويل مكسبي إلى حسابي المصرفي أو لأية جهة أريد، دون قيود أو شروط. فقلت له أنني لا أعرف قواعد الكازينو وإنني على استعداد لأن أستضيفه معي على الإفطار ليشرح لي ما يجب علي القيام به. نظر المدير في عيني حائرا، ولم يقل شيئًا وكأنه كان يفكر،

وسرعان ما استوعب الوضع وقال بأنني سأكون ضيفه فهو غير مسموح له أن يكون ضيفًا على زبائن الكازينو.

رافقني بوب إلى الصندوق وسلمت ما أحمل من فيش فانشغل اثنان وراء الحاجز الزجاجي بعدها فتبين أنني كسبت ما يقارب مائة وتسعة آلاف دولار بعد ساعات من اللعب، ومن أصل مبلغ لم يتجاوز الخمسمائة دولار، والتي كانت غالبيتها لا تزال في جيبي!

أصبت بدوار خفيف لدى سماعي بالمبلغ الذي لم أكن أتوقع مقداره بأي حال من الأحوال، ولكني تمالكت نفسي، وسرحت قليلًا، وأعادني صوت أمين الصندوق للواقع من شرودي، وهو يسألني كيف أريد المبلغ... نقدًا أم بحسابي! احترت فيما يجب القيام به، أو كيف أجيبه، نظرت خلفي فالتقت عيناي المتسائلتين بعيني بوب، المدير، فهرول مقتربًا مني حيث لم يكن يقف بعيدًا وسألني إن كنت أريد أية مساعدة، وعرف من واقع خبرته أنني في حيرة من أمري فيما يجب فعله بكل ذلك

المبلغ الكبير الذي كسبته. طلب السماح له بالتدخل في الموضوع، فأشرت له بيدي مرحبًا، فطلب من أمين الصندوق أن يصدر لي إيصالا باسمي لحين اتخاذي قرار بالطريقة التي أود التصرف بها بالمبلغ، فأومأت برأسي موافقا. سكتّ لا أعرف بماذا أجيب عندما سألني أمين الصندوق عن الاسم الذي أود أن أسجله على الإيصال الإلكتروني. هذه أول مرة منذ سنوات يطلب فيها أحد اسمي كاملًا، قد يكون هذا أمر بديهيّاً، ولكن صلتي بالبديهيات قد انقطعت منذ سنوات طوال. أحسست أن صوتي قد انحبس، وتطلب الأمر بعض الجهد لأقول شيئًا يشبه الهمس، وهنا ناولني الصراف ورقة وقلمًا وطلب مني كتابة اسمي بالطريقة التي أراها صحيحة!

وضعت الإيصال في جيبي، وذهبت والمدير بوب للجلوس على أحد طاولات الكافتيريا، التي كانت الأقرب للصندوق، وكأنني لا أود الابتعاد كثيرًا عن أموالي... أموالي؟ هذه كلمة جديدة في حياتي!!

شعرت أن بإمكاني الثقة في الرجل، ولا أعرف لماذا. أخبرته في دقائق بكامل قصتي، وهي أصلا ليست بكل تلك الغنى أو التعقيد، واختصارها أنني مشرد، وأن رفيقاي في التشرد ربما لا يزال يغطان في نومهما في ساحة ترابية ليس بعيدًا عن الكازينو، وإن القميص الذي أرتديه لا يزيد ثمنه عن بضع دولارات وإن بقية أمتعتي موجودة في صندوق معدني مدفون في مكان لا يعرفه أحد غيري، وأنني قطعت صلتي بأسرتي منذ سنوات طويلة ولا أعرف عنها شيئًا.

سكت المدير، وكنت أتوقع منه أن يرفع، على الأقل، حاجبيه، مستغربًا مما كان يسمع، ولكن يبدو أن هؤلاء تم تدريبهم بطريقة أصبحت فيها مشاعرهم ميتة أو على الأقل مدفونة، ووجوههم خالية من أية عاطفة.

قال بوب إن لدينا مشكلة، أعجبتني صيغة الجمع التي تحدث بها، وأشعرتني بنوع من الاطمئنان. قال إنه سيقف معي وسيبذل جهده لمساعدتي على حل الورطة

التي وجدت نفسي فيها. سألني إن كنت على يقين بأن ليس لدي رقم ضمان اجتماعي، فهززت رأسي موافقا، ولكن بغير اقتناع. ما أعرفه جيدًا أن صلتي بكل وأي رقم قد انقطعت منذ سنوات. وأنني قطعت كل ما كان لدي من البطاقات البلاستيكية من ضمان وأمان واشتراك وبنك وباب وقفل يوم قررت ترك البيت. فقال متسائلًا، وهذا يعني أن ليس لديك حساب مصرفي ولا ملكية واضحة، وربما ليس لديك وجود في أية جهة حكومية؟ فهززت رأسي قائلًا، هذا هو الوضع، على الأرجح. وأضفت بأنني لا أعرف حتى كيف أتواصل مع أي قريب من أقاربي، إن وجدوا.

سكت بوب برهة، ثم أخرج جهاز هاتف لاسلكي من جيبه وقام بإجراء مكالمتين، عاد بعدها ليقول بأن ليس أمامي غير أن أحد طريقين: إما استلام المبلغ من الصراف، والتصرف به بالطريقة التي أراها مناسبة. أو من الأفضل الاحتفاظ بالمبلغ لدى الكازينو، لأن

الخطورة بمكان حمل كل ما كسبت معي، أو حتى جزء منه، أو وضعه في جيوبي، أو دفنه في مكان سري. وإنه سيبذل جهده لإيجاد حل للمشكلة. واستطرد قائلًا بأنه ينصحني بقبول دعوته وأن أكون ضيفًا لديهم في الكازينو، لحين إيجاد حل ما. لاحظ أنني فغرت فاهي دهشة من عرضة غير المتوقع. فرد قائلًا بأن الكازينو ما هو إلا جزء من فندق ضخم يحتوي على عشرات الخدمات كبرك السباحة والمطاعم والبارات وقاعات الاحتفالات والعروض المسرحية والغنائية وغيرها، وأن بإمكاني خلال إقامتي التمتع بكل خدمات الكازينو مجانًا واللعب في أي وقت رغبت.

نظرت له، معتقدًا أنه غير جاد، فعرف ما كان يدور في بالي وعرض مرافقتي إلى حيث سأمكث، وفي طريقنا إلى الغرفة قام بإجراء بضع اتصالات هاتفية طالبًا تحضير غرفة محددة يعرفها، وأن يسبقه من لديه مفتاحها إلى هناك.

نورة

توقفت نورة للمرة الرابعة أو الخامسة عن قراءة ما كتبه برهان بسبب ما كانت تشعر به من إرهاق نفسي، ولإنهاء بعض أعمال البيت الضرورية والعناية باحتياجات آدم.

ولكن بالرغم من الإرهاق إلا أنها كانت منسجمة في قراءة ما كتبه برهان، وفيض المشاعر التي أبداها، وشعور، لم يطل كثيرًا، بالذنب لأنها كانت تخونه مع يونان، في الوقت الذي كان يكتب في أشعار الحب عنها ويتمنى عودته لحضنها.

ولكن ما هذا الذي يكتبه عما حققه من ربح في الكازينو. لا بد أن مفاجأة تنتظرها فيما تبقى من أوراق خواطره وذكرياته، وليس بإمكانها القفز عن أي سطر لمعرفة النهاية التي تتشوق للوصول لها، ولكنها مجبرة على التوقف عن القراءة. بالرغم من أنها أصبحت في

شوق رهيب لما فعله بذلك المبلغ الذي ربما لا يزال في حسابه في الكازينو، وهي وريثته الوحيدة!!

ضيف الكازينو

لم أكن أعتقد أن هناك غرف أو أجنحة فندقية بمثل هذه الفخامة، دع عنك السكن يومًا في أحداها. باب عريض بضرفتين يؤدي لممر طويل نسبيّاً مضاء بإضاءة مخفية وخافتة. صالة أو قاعة جلوس بأرائك وثيرة بيضاء اللون، وقطع سجاد صغيرة بألوان زاهية وبراقة مرمية هنا وهناك، وسقف يمتلئ بمصابيح يمكن التحكم بدرجة إضاءتها عن بعد من خلال جهاز صغير. كما تغطي كل حيطان الجناح ما يشبه القماش مزينة بلوحات تحمل رسومًا رائعة معلقة بشكل غريب ولكن جميل بالفعل.

عندما أخذني بوب ليريني حمام الجناح شعرت أن من الصعب علي قضاء حاجتي في مثل ذلك المكان الرائع! كان حجمه يزيد عن كامل مساحة ما كان يومًا صالة بيتي في هيوستن.

لاحظت فجأة أنني أصبحت أقارن الأشياء والأماكن ببيت هيوستون الذي كنت أعتقد أنني قطعت صلتي به إلى الأبد. مسكات الحنفيات ذهبية لا أعرف إن كانت مطلية أم حقيقية، كل شيء يبدو كالخيال... ليس لفخامته بل وأيضًا لأنني لم أكن أعتقد بوجود ما يماثله أصلًا.

لم يتوقف جرس الباب عن الرنين. كان الحلاق أول من حضر، ثم تبعه من قام بالعناية بأظافر يديّ وقدميّ... وهذه أيضًا خدمة لم أكن أعرف حقيقة أنها تصلح للرجال أيضًا. كنت أسمع نوره تتكلم عنها مع صديقتها «جين»، ولكن كنت أعتقد أن العناية بها مقتصر على النساء.

استلقيت على الفراش الوثير وشعرت لوهلة أنه سيصعب العودة للنوم على التراب أو أعشاب الحدائق، أو حتى الكراسي الحديدية أو الخشبية إن استغرقت في النوم على ذلك الفراش الملكي أو الإمبراطوري، أو

الدكتاتوري الوثير.

سحبت الشرشف الأبيض النظيف باتجاهي وغطيت به قدماي، وبدأت بتأمل السقف، فلم يكن بإمكاني النوم وأنا أفكر بتسارع الأحداث من حولي وانقلاب أفكاري ووضعي، والثروة التي أصبحت أملكها ولا أعرف كيف أنقلها معي أو اتصرف بها. بدا السقف وكأن عشرات العمال قضوا سنوات في زخرفته وزرع كل نقاط الإضاءة الممكنة فيه، والتي يمكن التحكم في درجاتها بلمسات خفيفة على شاشة سوداء تقع على أحد جانبي السرير، كما بين لي بوب.

على طاولة الطعام التي تتوسط جانبا من الصالة، والتي يمكن أن تسع لعشر أشخاص، وضع أناء أو سطل فاخر مليء بالثلج وسلة فواكة طازجة، وزجاجة شراب. سألني من أحضرها، مع بضعة كؤوس طويلة ورشيقة، إن كنت أود منه فتح الزجاجة، فهززت رأسي نافيًا وطلبت منه أن يخرجها من الغرفة.

ودعني بوب وقال أنه سيقوم بترتيب بعض الأمور من أجل راحتي، وأن بإمكاني أثناء ذلك التمتع بوقتي وطلب ما أريد... مجانا! وإن رقم هاتفه المباشر هو 777 ويمكنن الاتصال به في أي وقت، فسيرد هو أو سترد بدالة الفندق، والتي تعرف كيف تجده. وقال بأن رقم خدمة الغرف هو 7، ولا يتطلب الأمر غير رفع السماعة وطلب ما أريد.

شعرت فجأة بألم حاد في صدري، فقلت له مازحًا، يجب أن يرسل لي فورًا طبيبًا متخصصًا في التنفس، لأنني أشعر بآلام ، ولم أكن في الحقيقة جادًا في طلبي، ليقيني بصعوبة ذلك. ولكن بوب أخبرني أن طلبي سيلبي بأسرع مما أتصور، وبالفعل ما هي إلا دقائق إلا وأنا نصف عريان وخاضع لشتي الفحوصات من الطبيب المقيم في الكازينو، والذي طلب عينة من دمي.

أخبرني الطبيب، بعد انتهاء الفحص المبدئي بأنه غير مطمئن لحالتي، خاصة بعد أن عرف من مجموعة

الأسئلة التي وجهها عن سابق حياتي في التشرد والنوم في العراء، وفي محطات الحافلات وتحت الجسور وفي الحدائق العامة، وقال بأن هناك احتمال كبير من إصابتي بمرض يطول علاجه، ذكر اسمه، ولكني نسيته. وقال بأن من الضروري الذهاب إلى المستشفى بأسرع ما يمكن، لإجراء فحوصات الأشعة والإم آر آي، ولكنه سينتظر نتائج فحوصات الدم قبل اتخاذ قراره النهائي، وسيحاول الحصول عليها بأسرع ما يمكن.

شككت في كلامه، فلم أكن حقيقة أشعر بأنني مريض بصورة جدية، وقد أحتاج لعلاج بسيط، خاصة وإن الآلام التي كانت قبل ساعة قد اختفت تقريبًا، ولكن أصبحت أسمع صوتًا كالصفير وأنا أتنفس، وبالذات أثناء السير بسرعة.

شكرت الدكتور وشكرت بوب على سرعة تجاوبه، وصدق وعده بالوقوف معي. وقلت له بأن لا رغبة لدي للنوم وسأعود لصالة القمار الرحبة ثانية بعد قليل.

خرجت من غرفة النوم لصالة الجناح وأخذت أتمعن في الأرائك وكراسي طاولة الطعام المستديرة والأنيقة وقطعة الثريًا الكبيرة التي تتوسط سقف الصالة مرسلة نورها لكل الاتجاهات دون أن يؤذي بريقها العين.

نظرت من الشباك الكبير الذي يؤدي لبلكونة كبيرة وهالني منظر مدينة الليل والنهار من ذلك العلو الشاهق. تصورت أن عدد مصابيح الشوارع والكازينوهات والفنادق والمحلات في هذه المدينة العجيبة يفوق ما في السماء من نجوم بعشرات المرات، وفوق ذلك هي أجمل من السماء بألوانها البراقة والمتعددة، وحركات بعضها الدائمة في مختلف الاتجاهات!

أخذت أنظر في الساحات المظلمة في جهة من الفندق وكأنني أبحث عن شيء افتقدته أو فقدته منذ فترة، وتبين لي أنني كنت، لا شعوريّاً، أبحث عن آثار رفيقي دربي في لاس فيجاس والسيارة الفيات، وأنا تساءل هل لو شاهداني بوضعي الحالي، وأنا الذي لم

أغادرهما إلا قبل ساعات فقط، سيصدقان ما تراه أعينهما؟

فيجاس

تعتبر لاس فيجاس مدينة كاملة، ولكن ليست كأي مدينة. مدينة قائمة تمامًا على حلم تحقيق الثراء بلحظات، أو نهاية المال، وأحيانًا انتهاء الحياة نفسها، بلحظات. مدينة لا قلب لها، ولكن في كل زاوية منها تسمع أجمل أغاني الحب والغرام والشوق والإخلاص والمحبة، وكلها أمور لا علاقة لفيجاس بها. فأنت في هذه المدنية يتم تقدير ثمنك ومقدار احترام الناس والفنادق والمدراء والسعاة والكناسين بما في عقلك من جنون، وما في جيبك من نقود، فكلما زادت كمية الجنون وزاد مالك زاد الاحترام لشخصك. فمتى عقلت وتوقفت عن لعب القمار فأنت لا شيء بالنسبة لهم، فلا مالك ينفعهم ولا شخصك يبهرهم. ومتى ما انتهت أموالك فأنت في عيونهم مثل منديل الورق المستخدم.

تذكرت فجأة الثروة الجديدة والكبيرة التي حققتها

وبدأت الشكوك تساورني. لقد خسر الكازينو الكثير معي فلم يخسرون اكثر على استضافتي في أحد أفضل أجنحتهم؟ ألا يعني ذلك خسارة أخرى فوق خسارتهم؟ لماذا يعرضون علي هذا الجناح وهم على علم تام بأنني كنت سأرضى بالنوم علي أي من كراسي الكازينو؟

زادت شكوكي عندما تذكرت أن ليس لدي ما يثبت هويتي. حتى صديقي بوب، المدير، ربما لا يمكنه مساعدتي إن طلب مني أمين الصندوق أن أبرز ما يثبت أنني «برهان»... ماذا لو تغير الصراف أو أمين الصندوق؟ هل يكفي حملي للإيصال إثباتا لملكيتي لمبلغ المائة ألف دولار؟ وماذا لو كان الأمر كله مرتبًا بين صديقي الجديد، المدير، وبين إدارة الكازينو للاستيلاء على ما كسبته منهم؟ وماذا لو فقد الإيصال مني أو سرقه أحدهم؟ هل يكفي أن أقول بأنني فقدته ليقوموا بإصدار آخر بدلًا عنه؟

وضعت كل أفكاري السوداء والخضراء جانبًا وقلت

لنفسي لماذا يجب أن أقلق، فصندوقي المعدني وصديقاي لا يزالان بانتظاري، وإن حاول الكازينو سرقتي فلن أعترض فالمال في حقيقة الأمر مالهم وهو ما كسبته مقامرًا، ولم أبذل جهدًا حقيقيّاً في كسبه، ولن أحزن للعودة لسابق حياتي ... مشردًا ولا مباليًا.

عدت لغرفة النوم، ولففت نفسي في أحد أردية الحمام الفخمة، ودلفت بين أغطية الفراش الوثير، وغطيت رأسي، كما لم أفعل من قبل، واستغرقت في نوم عميق بعد يوم مرهق نفسيّاً، فلم يسبق أن تعرضت لكل هذه الضغوط في فترة القصيرة منذ تركت بيت هيوستون.

كانت الساعة بجانب السرير تشير إلى الحادية عشرة عندما استيقظت من النوم، دون تيقن إن كان الوقت صباحًا أم مساء، فالستائر الكثيفة كانت حينها تغطي كافة النوافذ. كما لم يكن بإمكاني معرفة عدد الساعات التي نمت فيها، فإدراكي للوقت غادرني منذ سنوات،

وأصبحت ساعات اليوم كلها تشبه بعضها البعض.

تطلب الأمر بضع ثوان لكي أستوعب أين أنا واستعادة أحداث الليلة السابقة، أو الساعات القليلة الماضية... لا أدري!

رفعت سماعة الهاتف بجانب السرير، كما سبق وأن شرح لي صديقي بوب واتصلت بالرقم 7 وطلبت إفطارًا.... تبع ذلك صمت على الطرف الآخر، الذي استدرك الأمر وسألني بدوره: إفطار؟ فأحسست أن الوقت ربما لا يكون صباحًا بالضرورة، فطلبت منه أن يرسل لي دجاجة مشوية وأشياء كثيرة أخرى. شعرت بالمبالغة في الطلب والسبب أن من رد على المكالمة كان يكرر هل تريد شيئًا آخر يا سيد برهان؟ فكنت أزيد الطلب لسماع تلك الجملة ثانية وثالثة.

ما أن أعدت سماعة الهاتف لمكانها حتى سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، فتحته وأنا شبه عار، حيث لم أكن أرتدي أية ملابس داخلية، فما كنت أرتديه منها كان

مرمى في كيس قمامة أزرق في الحمام، ولم أكن ارغب في ارتدائها ثانية، فقد كانت بالفعل قذرة جدًا.

كان روب الحمام الذي كنت أرتديه مفتوحا من الأمام بغير اكتراث عندما فتحت الباب للطارق، فإذا هو عامل يطلب الإذن بالدخول وهو يدفع أمامه عربة كالتي تستخدم في الفنادق لحمل حقائب الضيوف، وقد علق على عمودها العلوي علاقات تحمل أكياس بلاستيك، افسحت له الطريق، فوضع العربة في طرف من الصالة، واستأذن خارجًا، وهو يقول بأن أحدًا من الإدارة سيقوم بزيارتي بخصوصها. طلبت منه أن ينتظر. أزلت أكياس البلاستيك عن العلاَقات وتبين أن بداخل أحدها قميصين وبداخل الأخرى سترة صيفية وبداخل الثالثة بنطالين. قال العامل بأن علي تجربة هذه الملابس ومعرفة مدى ملائمة قياساتها، وإن أحدا سيأتي خلال دقائق لتعديل ما هو مطلوب تعديله من أطوالها، حسب رغبتي. وأن نفس الشخص سيقوم بإحضار صنادل

مناسبة لكي أرتديها، وسيحضر معه كذلك زوجين من الملابس الداخلية والجوارب المناسبة.

طمأنتني كل هذه الأمور بأن الكازينو لا يقصد إيذائي أو سرقتي، فهم غير مجبرين أصلًا على الصرف علي بكل هذا البذخ لو لم يكن وجودي يعني لهم شيئًا، وعلي أن أحسن الظن بهم. ولكن هذا الشعور بالاطمئنان لم يكن كافيًا فما إن انتهيت من قياس ملابسي الجديدة، وجاء من يعدل أطوال أرجل البنطال، وانتهت من تناول الطعام الذي تركت أغلبه دون أن ألمسه حتى نزلت لصالة الكازينو الرئيسية واتجهت للصندوق، وأبرزت الإيصال الذي كان معي وطلبت من الصراف أن يعطيني عشرة آلاف دولار!

أخذ الصراف الإيصال وأصدر آخر بدلا عنه، بالمبلغ الأقل وسألني كيف أريد العشرة آلاف؟ لم أفهم ما قصده، ودفعته علامات التساؤل التي ارتسمت على وجهي لإعادة صياغة السؤال قائلًا إن كنت أريد المبلغ

كله نقدًا أو فيشًا لكي ألعب أو أقامر بها؟ ابتسمت بسعادة، استنكرتها للحظة، وقلت له إني أريد فيش لعب بكامل المبلغ.

غادرت شباك الصرف ومعي عشرة آلاف دولار وإيصال جديد!

شعرت بالراحة والثقة، فالعملية لم تستغرق شيئًا من الوقت ولم يتم فيها تبادل أو نطق أكثر أربع أو خمس كلمات، لينتهي الأمر بكل هدوء.

لم أخطو غير خطوات قليلة قبل أن أقرر العودة للصراف ثانية لأسأله، وأنا أضع الإيصال الجديد أمامه: ماذا لو فُقد هذا الإيصال مني، هل يعني ذلك أنني فقدت ما أملك؟ ارتسمت ابتسامة واثقة على وجه الصراف، وطلب مني أن أطمئن، فلن يتصرف في رصيدي أحد غيري. ثم أشار بالقلم الذي كان بين أصابعه لسقف الغرفة التي كان بها، وإلى خارج الحاجز الزجاجي الذي كان يفصلنا، حيث توجد عشرات كاميرات المراقبة التي

تغطي كامل المكان وقال بأنها الضمان، فهي تلتقط كل حركة وتسجل له خطوة، وتعرف كل وجه، ولا يمكن أن يأتي أحد ليدعي أنه أنت، فصورتك تظهر أمامي على شاشة الكمبيوتر كلما طلبت مالا أو أودعت مالا!

بدأت بالسير في ممرات الكازينو، متحسسًا بين الفترة والأخرى قطع الفيش البلاستيكية التي في جيبي، والتي لو وجدتها أو ما يشبهها في القمامة، وأنا أبحث فيها عن أي شيء يمكن بيعه أو الاستفادة منه، لما التفت لها أو دار ببالي أنها تساوي القيمة المالية الكبيرة المدون عليها .

لفتت نظري، وأنا أسير بين طاولات القمار أمور غريبة بالفعل لم أنتبه لها عندما خطوت داخل الكازينو لأول مرة متجها للصندوق، لكي أغير العملات المعدنية التي كسبتها بأوراق نقد، بصحبة ذلك العامل الطيب الذي عرض مساعدتي. لاحظت أن لا أحد تقريبًا يلتفت ليرى ما يجري حوله، الكل منهمك باللعبة التي أمامه، منزو

في عالمه. قلة تتحدث مع بعضها البعض، وغالبًا بهمس. الغالبية تبدوا شبه منعزلة عن العالم، بانتظار ضربة حظ تعيد لها ما فقدته من مال، أو تضيف أصفارًا أخرى لما لديها. كما تبين لي من عالم الكازينوهات أن هناك ربما رابح واحد فقط من بين كل ثلاثين أو أربعين لاعبًا أو مقامرًا يخسرون. وبالرغم من أن الجميع يشعر أو يدرك أن عدد من يخسرون في الكازينو أكثر بكثير مقارنة بمن يربحون، إلا أن لا أحد تقريبًا يهتم بهذه الحقيقة، خاصة وأن قلة فقط على استعداد للتذمر علنا من الخسارة، فليس من الفروسية أو الرجولة، وغالبية المغامرين من الرجال، الشكوى من الخسارة في لعبة لم يجبرهم أحد عليها. رؤية اللاعبين لغيرهم يخسرون يشبه رؤية قائدي المركبات لضحايا حوادث الطرق وأجسادهم أو جثثهم مرمية على أسفلت الطرقات، وسياراتهم مهشمة تمامًا نتيجة السرعة، ولكن الغالبية لا تكترث لما تراه بل تستمر في سيرها وسرعتها التي كانت عليها، مع تباطؤ

مفتعل في أول ثلاث أو أربع دقائق، فور تبخر مشاعر الاتعاظ، لاعتقادهم أن المصائب التي تحصل مع الغير لن تحصل بالضرورة معهم. فبيوت الغير تسرق وليس بيوتهم، ومخازن الغير تغرق أو تحرق وليس مخازنهم، وأطفال الغير يختطفون وليس أطفالهم، والغير حظه سيئ في اللعب وليس بالضرورة حظهم. فلا أحد يكترث مثلًا، قبل الدخول للكازينو لأول مرة، بسؤال الخارجين منه عن حقيقة حظوظهم وهل كانوا من الرابحين أو الخاسرين ليقرر بعدها دخول المكان أو النفاذ بجلده.

كما أصبحت، وأنا مستمر في التسكع بين مختلف قطع الأثاث وطاولات القمار ومئات مكائن السلوت، وآلاف اللاعبين، وأنا شابك يدي خلف ظهري متسائلًا عن هوية كل هؤلاء البشر اللاعبين؟ هل هم حقا ضيوف أم زبائن أم مجرد ضحايا؟ لا شك أنهم ضحايا. ضحايا وهم ترسخ في عقل الإنسان منذ الأزل، أو ربما هو جزء من طبيعته البشرية! فما الفرق بين المغامرة

والمقامرة، أو العبقرية والجنون؟ ماذا كان سيكون عليه مصير البشرية لو لم يكن الإنسان فضوليّاً، مغامرًا ومقامرًا؟ من الذي كان سيعرف ما يقع وراء كل تلك الجبال الشاهقة أو البحار والمحيطات المظلمة لولا روح المغامرة التي كانت تشتعل في قلوب البعض والرغبة في معرفة المجهول؟

ماذا لو لم يكن بيننا من يؤمن بضربة حظ تحولهم لمكتشفين كبار ومشاهير ولأصحاب ثروات ضخمة وغريبة لتصبح أسمائهم على كل شفة ولسان، ربما إلى الأبد، خلال أيام. ماذا كانت طبيعة شخصيات عجيبة من أمثال فاسكو دي جاما وماجلان وأمريكو فسبوتشي، وكولومبوس وماركو بولو، وابن بطوطه ومئات المغامرين والمقامرين غيرهم. وماذا عن الذين أصروا على المخاطرة بأرواحهم كالمتسلق النيوزيلندي «إدموند هيلاري»، الذي كان أول من قهر قمة إفرست العام 1953، أو الذين فقدوا أطرافهم في سعيهم لقهر قمم

جبال عالية سبق أن قهرها غيرهم... أليست هي روح التحدي والمغامرة... المميتة أحيانًا؟

ماذا عن أصحاب الكازينو، أليسوا هم، قبل أن يبدأ الكازينو عمله، أيضًا مقامرون من الدرجة الأولى؟ ألم يغامروا أو يقامروا بكميات كبيرة من أموالهم في مشروع قد يربح وقد يخسر، ومعرض للإفلاس أو الإغلاق في أية لحظة بسبب تغير الظروف أو القوانين أو المصالح التجارية؟

الكازينو أو أي مشروع تجاري يعتمد أساسًا على عدد رواده، فكلما زاد العدد كلما زادت فرص الربح لأصحابه، والعكس صحيح. والكثير من الكازينوهات خسر أصحابها أموالهم مع تبخر الزبائن، أو بسبب تغير القوانين أو لأي سبب آخر. وكانت مدينة «أتلانتك سيتي» في نيوجيرسي في فترة ما أحد ضحايا الحالمين بتحقيق الأموال الطائلة من وراء ألعاب القمار، ولكن ذلك لم يتحقق أبدًا وتسبب ذلك في إفلاس الآلاف نتيجة افلاس المدينة.

ولكن هناك بطبيعة الحال فروق بين المقامرة والمغامرة لا تخطئها عين الفاحص. فليس هناك الكثير من المدمنين على المغامرة، ولكن مقابلهم هناك مئات الملايين المدمنين، والمرضى الحقيقين، من المقامرين. فغالبية حكومات العالم لا تمنع أحدًا من المغامرة أو تحرّمها، ولكنها تحرّم وتمنع المقامرة لما تسببه من خراب بيوت وهدم أسر وتحطيم رؤوس وإذلال نفوس، خاصة عندما يصل اللاعب لدرجة الهوس والاعتقاد أن في إمكانه التغلب على الكازينو، أو الطرف الآخر الذي لديه المال. كما أن المغامر إن فشل فسيعيد الكرة مرة أو مرتين، وينسى الموضوع غالبًا، أما المقامر المدمن فإنه سوف لن يتردد في المحاولة لمئات المرات، وقد يضطر أحيانًا للتضحية بشرفه وسمعته وأهله ورهن حتى ملابسه التي تستر عورته لكي يأتي بالمال ليستمر في اللعب والمقامرة! كما أن المغامر أمامه بضع حقائق وعليه إجراء بعض الحسابات، والتي قد تدفعه للتروي

وتغيير خططه أو تأجيلها لوقت أكثر ملائمة، أما المقامر فليس لديه غير شعور واهم غالبًا، بأن الحظ هذه المرة سيكون إلى جانبه، ومتى ما غرق في أوحال مثل هذه الأوهام حتى أذنيه فإنه غالبًا ما سيتسمر في الخوض فيها وفقد الإحساس تدريجيّاً بكل قيم الحياة، والتواري على الأنظار والانعزال عن المجتمع، بعكس المغامر الجسور، الذي يخالط الكل ويتحدث ويتفاعل مع الجميع ويستفيد من تجارب الآخرين ولا تراه مضطرًا أبدًا لتوسل الغير، أو إذلال نفسه لأحد، أو السعي للحصول على المال بأية وسيلة كانت لكي يستمر في خوض مغامرته القادمة.

كتبت يا نوره الأفكار أعلاه وأنا في الطائرة متجها للشام، ولا تسأليني، أو بالأحرى لن يكون بمقدورك طبعًا سؤالي عن أمر غمض عليك، أو كيف كتبت هذه الذكريات والخواطر، فكما سبق وأن أخبرتك: أنا وأنت وهذه الأوراق سوف لن نجتمع أبدًا.

لا معرفة ولا قدرة لدي لتقدير تكلفه بناء وإدارة وتشغيل ناد قمار متوسط الحجم، ولكن المبلغ في جميع الأحوال سوف لن يكون بالقليل خاصة وإن مشروع الكازينو خدمي، لا ينتج سلعة ولا يبيع معلومة، وبالتالي من المهم معرفة من يتحمل كل مصاريف إدارته، ومن الذي يدفع رواتب آلاف العاملين فيه، من مدراء وديلريه من الجنسين وتزويدهم بأرديتهم الخاصة، ومصاريف المبنى واستهلاك الماء والكهرباء، وجيش الموظفين في خدمة الأغذية وتوصيل آلاف الوجبات الغذائية لمطاعم الفندق وخدمة تنظيف وتجهيز وصيانة مئات الغرف، طوال ساعات الليل والنهار دون كلمة تذمر واحدة؟ هذا غير سائقي مركبات الكازينو وعمال النظافة والأمن والحراسة، وغيرها من مهن هامة، وكل ذلك يذكرني بالجملة التي قرأتها في نهاية الكتيب الخاص بلعبة البلاك جاك، والتي لم أعرف معناها في حينه ومع هذا حفظتها وكان نصها : إن أردت أن تقامر فعليك أن تتذكر

جيدًا أن احتمالات الربح والخسارة هي في «الغالب الأعم» في صالح الكازينو. وهذا يعني أن المشروع مصمم لكي يربح، وهو مبني على حلم طالما شغل بال الإنسان منذ تطور عقله. فأولئك الذين تركوا أوطانهم من أهل الشام ولبنان قاصدين مدن المهجر في أمريكا والبرازيل والأرجنتين وإفريقيا وأستراليا وغيرها، وكنا يوما منهم، لم يفعلوا ذلك هربًا من ظلم أو مشكلة فقط بل في الغالب بحثًا عن حلم ثراء وتحقيق ما لم يستطيعوا تحقيقه في أوطانهم. ومن ينجح من هؤلاء يصبح تاليًا مثلًا وقدوة للملايين غيره، ولكن عدد من حققوا النجاح بالكاد يذكر، أما الملايين الذين فشلوا فلم يعرهم أحد أي اهتمام، ونسيهم التاريخ بعد أن ماتوا نتيجة وباء أو التهمتهم التماسيح أو الوحوش الكاسرة، أو اصبحوا مشردين في طرقات المهجر، وهكذا مع رواد كازينوهات القمار، فلا أحد يقتدي أو يتمنى أو يفكر بأنه سيكون من الغالبية الخاسرة، بل الجميع لديهم أمل بأن

يكونوا من الأقلية الرابحة، أو من أصحاب الحظ،، من الواهمين بتحقيق الربح، وليس أي شيء آخر.

يبدو لي أن غالبية مباني الكازينو تتكون في جزئها الأكبر من صالات ضخمة يسهل الوصول لها، وغالبًا ما تكون على مستوى الطريق، وغالبًا لا أدراج ولا مصاعد ولا قيود ولا حواجز، وتشعر وأنت تتجول في ردهات وصالات وقاعات وممرات الكازينو أن لا نهاية لها لاتساعها، وكنت أعتقد يوم دخلت أول كازينو أن حجمه لا يزيد عن حجم معرض سوبر ماركت صغير.

اعتقدت وأنا مستمر في سيري أنني في واحة حرية أبدية، ويبدو أنني نسيت كلمات رجل الأمن الفظ، عندما نهرني، وطلب مني أن «أنصرف أو أضيع» Get lost عندما حاولت اللعب على أحد مكائن السلوت.

أما الآن، فإن كل شيء يبدو جميلًا، ويسير بسلاسة والجميع غارق في شعور أبدي بالسعادة، مع موسيقى خفيفة تصدح في خلفية غير مرئية، وأخرى صاخبة،

وما يصدر عن شاشات التلفزيون الضخمة من أصوات مشجعي المباريات الرياضية.

الجميع يبدو غارقًا في أحلامه، ووعود الجنة التي ستأتي مع الربح السهل والسريع، فالعروض المغرية المنتشرة في كل مكان تؤكد ذلك بأرقام فلكية لا لبس فيها، تجدها منصوبة أو مضاءة في كل مكان.

لا قيود ولا شرطة ولا رقابة، ولكن سرعان ما تنتبه أو تكتشف أن كل شيء مراقب والكاميرات تلتقط كل حركة وتعد حتى أنفاس الرواد واللاعبين، فما أن يرتفع صوت محتج أو يقع خلاف أو اعتراض ضيف على تصرف من أحد موظفي الكازينو، حتى تجد رجال الأمن وموظفين كبار يخرجون من حيث لا تدري لمعالجة الأمر، ووضع حد لأية محاولة إقلاق راحة بقية اللاعبين، فلا أحد من هؤلاء، إن كان خاسرًا أو من الرابحين، يرغب فيمن يعكر مزاجه ويشغله، أو يشتت انتباهه لما يقوم به ويخطط له، وينتظره من كسب.

عرفت من بوب أن نسبة صغيرة من الرواد تدخل الكازينو لهدف محدد، ويشكل هؤلاء زبائن الكازينو المخلصين أو الدائمين تقريبًا، وغالبيتهم من مدمني القمار، وهناك نسبة مماثلة تأتي للكازينو للتسلية وتعرف حدودها وغالبًا ما تخسر ما رصدته لغرض التسلية وتغادر ولا تعود عادة إلا بعد طول انتظار. أما النسبة الأكبر، فهي تلك التي يدفعها الفضول للعب ولا شيء غيره، وهؤلاء غالبًا ما يخسرون أو يدفعون ثمن فضولهم غاليًا، ليعودوا بعد فترة ليكرروا الأمر، في محاولة لاسترداد ما خسروه.

كما أن هناك فئة صغيرة، ولكن هامة وشديدة الثراء، وغالبًا من المشاهير أو السياسيين أو الزعماء، أو رجال العصابات، ومبيضي الأموال الذي لديهم غالبًا شغف بالقمار كالعامة، ولكن لا يودون الظهور علنًا لاعتبارات معروفة، ولهؤلاء تخصص قاعات أو غرف لعب قمار خاصة لا يمكن لأحد رؤيتهم أو التعرف عليهم، ولا يمكن

لأي كان ارتيادها بسهولة.

شعرت بالتعب من التسكع وجلست على أقرب طاولة بلاك جاك. تحسست فيشة الألف دولار في جيبي وقررت الاحتفاظ بها، وقلت للديلر بأن لدي حساب في الصندوق وأريد سحب عشرة آلاف دولار منه. ألتفت اثنان من اللاعبين على الطاولة صوبي ورمقاني بنظرات متسائلة، أشعرتني بأن شكلي، بالرغم من المحاولات التي قام بها الكازينو لتعديله وتجميله، غير مريح، ويبدو أن آثار سنوات التشرد، وسوء التغذية ظلت باقية على محياي، ترفض أن تزول بسهولة خاصة جفاف جلدة اليدين، والهالات السوداء حول العينين المتعبتين.

ترك أحدهما الطاولة فانتقلت للجلوس مكانه.

ناولني الديلر كمية فيش تساوي مبلغ العشرة آلاف دولار التي طلبتها، وقام بأخذ توقيعي على ورقة سرعان ما التقطها أحد المدراء، وذهب بها إلى الصندوق.

قمت، لا شعورياً، بالمراهنة بمبلغ عشرة دولارات،

فلفت الديلر انتباهي إلى أن نظام الطاولة التي كنت ألعب عليها لا يسمح بالمقامرة بأقل من 50 دولارا لكل شوط، ويمكن مضاعفة المبلغ متى أردت، إن سمح إجمالي العدد في أوراقي بذلك!

لم أفهم في البداية ما قاله، ولكني لم أكترث، ولكن مراقبة ما كان يفعله بقية اللاعبين بينت ما كان يقصده. استمر لعبي لساعات لا أعرف عددها، فلم أكن أحمل ساعة، ولم أعبأ حقًا بسؤال أحد عن الوقت، فكل كازينوهات العالم لا تضع ساعات في أي مكان منها لكي لا تقلق عقاربها الضيوف من رواد الكازينو، وتشعرهم بمرور الوقت، أو تنبههم إلى تأخرهم، أو أن سهرهم قد طال، فيقومون بمغادرة المكان. فمن صالح الكازينو أن يبقى اللاعبون لأطول فترة. فالكازينو لا يحب اللاعب الذي يحقق كسبًا سريعًا، ويغادر، وقد لا يعود، بل يبذل الكازينو الكثير لإبقاء اللاعبين منهمكين في اللعب، دون تقدير للوقت، وتساءلت بيني وبين نفسي هل هذا سبب

استضافة الكازينو لي؟ هل خوفهم من أن أذهب بما ربحت دفعهم لإبقائي بين جدرانه؟!

لا أدري ما كان يحصل حولي، فقد كنت منهمكًا في اللعب. كنت أكسب في كل مرة أراهن فيها، وكان الفيش يتجمع أمامي وتتحول فئاته الصغيرة لفئات أكبر. انتبهت متأخرًا لوجود عدد من رواد الكازينو أو فضوليه وهم متحلقون حولي يراقبون الطريقة الغريبة التي كنت ألعب بها ضد كل قاعده ومنطق، وعكس كل ما قرأته في الكتيب، وكل ما حفظته عرضًا من تحذيرات، ولكن كمية الفيش لم تتوقف عن الاتجاه صوبي، وخاصة من فئاتها الثقيلة والكبيرة، ويبدوا أن عدم ظهور إمارات الحماس أو النشوة علي، بالرغم من مظهري المتواضع قد دفعت من كانوا حولي طويلا قريبًا مني ومراقبة الطريقة غير الكلاسيكية التي كنت ألعب بها.

توقفت عن اللعب وطلبت من الديلر أن يسلمني حسابي، فقام بإصدار صوت يشبه الصفارة، وخلال

ثوان كان صديقي «بوب» يمد يده لمصافحتي. بادلته الترحيب وطلبت منه مساعدتي في إضافة المبلغ لحسابي، وتزويدي بإيصال جديد.

لم أصدق عيني، فقد فغرت فاهي لا شعورياً، ولكن لا أحد لاحظ ذلك، أو هكذا ظننت، وأنا أقرأ رقم المبلغ على الإيصال، وما أصبحت امتلكه في حسابي في الكازينو. أربعمائة وعشرون ألف دولار، غير بضعة آلاف أخرى طلب مني بوب الاحتفاظ بها معي نقدًا.

أحسست بتنمل أطرافي وبعدم قدرتي على الوقوف، أحسَّ بوب بما كنت أشعر به وسألني إن كنت على ما يرام فقلت له، وأنا أتكئ عليه، بأنها آلام الظهر التي أعاني منها فقد عادت مع استمرار جلوسي على طاولات اللعب لساعات طويلة، وطلبت منه مساعدتي في الوصول لأقرب كرسي، ولم أكن صادقًا بالطبع. كما كنت أشعر بضيق في التنفس، فقد كان أحد اللاعبين يدخن سيجارا، وكان دخانه يتجه طوال الوقت صوبي.

بعد تناول فنجان قهوة بالحليب وشطيرة «أومليت» إسبانية، كما قيل لي أن ذلك اسمها، عاد لي توازني، فأخبرت بوب بأنني مضطر للذهاب لغرفتي لأخذ قسط من الراحة، فهز رأسه متفقًا معي، وقال بأنه سيمر علي حال انتهاء نوبة عمله. سلمني ورقة بيضاء دون عليها اسمه ورقم هاتفه، وقال بأن من السهل الوصول له على ذلك الرقم طوال ساعات الليل والنهار، متى ما كنت في حاجة للحديث معه.

شكرته على أريحيته، وطويت الورقة الصغيرة ووضعتها في جيبي، وأنا ممتن له فهو حلقتي الوحيدة لعقل وقلب هذا المكان الغامض والمخيف في حجمه الظاهر والسري غير المنظور والمطمور في غالبه تحت الأرض والمراقب بآلاف عدسات المراقبة والمخبرين المتنكرين.

وقفت مغادرًا، ووقف بوب وطريقة حديثه أصبحت أكثر رقة وطاعة واحترامًا، فهل يا ترى هي الدولارات

الأربعمائة والعشرين ألفا، وطمعه في جزء منها، أم هي المحبة الصادقة؟ لا أدري ولا أود حقًّا أن أدري.

لم أرغب في الذهاب لغرفة النوم، بل اخترت صوفًا غريبة الشكل في صالون الجناح تبدو كجسد امرأة في التوائها، وتخصرها في المنتصف، موضوعة في الطرف، قريبًا من طاولة الطعام، ورميت جسدي المنهك عليها.

يبدو أنني سوف لن أتأقلم بسهولة مع الأماكن الوثيرة والمريحة، وإن ذلك سيأخذ بعض الوقت، فلم أكن أتصور أنني سأدخل مثل هذا المكان، أو حتى أتخيل وجوده في هذا العالم. لم كل هذا البذخ أو الإسراف الذي لا أستطيع فهمه. سنوات تشردي قتلت لدي فضيلة أو سيئة الاستغراب أو الفضول والتساؤل... فلا شيء في هذه الحياة يصبح له أهمية، طالما أن المشرد لا يمتلك شيئًا، فلم السؤال؟ فنحن عادة ما نوجه الأسئلة كيلا نضيع وقتنا أو طريقنا. أو نسأل عن أمر لتجنب خطره، والخطر كلمة ليست في قاموس المشرد، بل

الخوف فقط. والناس تسأل لتستفيد أو لتحقق مصلحة أو صفقة، وهنا ليس للمشرد مصلحة في شيء. والناس تسأل كيلا تشتري شيئًا خطأ، أو يفوتها قطار أو حافلة أو لا تغادر الطائرة من غيرهم، وتتركهم أمام البوابة الخطأ، وهذه جميعها لا أهمية لها في حيات المشرد، في حياتي!.... هل لا زلت أنتمي لهم، لهؤلاء المشردين؟

أعلم إلى حد ما الأشياء أو الأمور التي جعلتني أو دفعتني لأصبح مشردًا، ولكن هل هناك أمور في جيناتي أو نفسيتي أو عقلي الباطن دفعتني لأن أختار التشرد؟ علمت من مايكل وتوماس أنهما لم يختارا التشرد بل هو الذي اختارهما، وإن ظروف الحياة هي التي أجبرتهم، بعد قضاء سنوات في السجن، والخروج منه لمواجهة الواقع، وبعد أن تبين لهما أن لا أحد تبقى من أقاربهم، ومن بقي منهم اختار قطع علاقته بهم. كما أصبح من الصعوبة بمكان إيجاد عمل مع قلة خبراتهم وسجلهم الجنائي.

لا شك أن جميع المشردين، دون استثناء تقريبًا، يبحثون عن الطعام والمأوى... ولكنهم يرفضون الأخيرة إن كانت ستؤثر على حريتهم في الحركة، أو تجبرهم على أداء أعمال شاقة نسبيّاً للبقاء في المأوى، كغسل الأطباق أو المساهمة في تنظيف المكان، أو التقيد بساعات النوم والاستيقاظ، فجميعها أمور تعتبر مقيدة بشكل مضن للمشرد، فالغالبية أو الجميع، وخاصة من يتمتعون بصحة جيدة نوعًا ما فإنهم يفضلون الحرية والتنقل أينما شاءوا والنوم أينما أرادوا، وفعل ما يشتهون في الوقت الذي يريدون، وجميعها أمور أهم بكثير من لقمة مشبعة أو سقف يأوي.

أما الأمان فقد عرفت من مايكل أنه يشعر في العراء بأمان أكثر. فقد كان والده لا ينام ليلًا قبل التيقن من أن باب شقتهم المتهالك مقفل، وأن صمام أنبوبة الغاز مقفل، ولا يتسرب الغاز منه. كما كان يحذرهم دائمًا من وقوع حريق، وكان يمنعهم حتى من لمس علبة الكبريت

أو ولاعات الغاز. وكان يمنع التدخين، بكافة أنواعه في الداخل، ولا يستخدم قدر استطاعته أية مواد قابلة للاشتعال بسرعة، أو يتركها دون تغطية أو يحفظها في الخارج. كما كان أي طرق على الباب، خاصة في ساعات الليل المتأخرة يجعله يستيقظ فزعًا من نومه، ويقوم بإيقاظ كل من في البيت ليعرفوا معه من الطارق، خوفًا من أن تأخذ الشرطة أحدهم ولا يعلم البقية في صباح اليوم التالي أين ذهب أو أختفى...! وهو لهذا يشعر أنه يعيش في أمان أكبر، بعد سنوات من العيش تحت هاجس الرعب والفوبيا التي كان والده يعاني منها، وأصبحت والدته تاليًا تعاني من نفس المرض. أما الآن فلا اكتراث بأي خطر... فلا شرطة ولا سجن ولا تسرب غاز ولا وقوع حريق ولا حتى مطالبة بالخدمة في الجيش أو المشاركة في لجان المحلفين، أو بأي نشاط إجباري آخر.

أما مايكل فكان يقول على سبيل السخرية بأنه

في حال وقوع عملية اختطاف رهائن وطلب فدية فإن المشردين والمرضي سيكونون من أوائل من سيطلق سراحهما، فمن سيدفع عنه سنتا لكي يصبح حرًا؟ كما أن المتشرد لا يمكن أن يصاب أبدًا بوسواس أو مرض النظافة الزائدة، وليس لديه أسرار يحاول إخفائها، أو يتحرق لأن يخبر بها أحدًا، سواء تعلق الأمر به أو بأسرار الآخرين.

ورغبة التشرد قد تكون نابعة عن خوف البقاء بين حيطان أو غرف مغلقة، إن بسبب حادثة أو تجربة مؤلمة مر بها المشرد، أو بسبب نوع من الإساءة الجسدية التي تعرض لها، ولم يستطع المقاومة بسبب ضيق المكان او انحصاره. وقد يكون السبب تعرضه أو تعرض أحد أحبته لحريق، والنجاة منه، ولكن ليس بدون فقد أرواح أعزاء، ومن هنا أتت كراهية البعض للأماكن المغلقة، ولهذا نجد بعض المشردين يفضلون العيش في الشارع أو الحدائق العامة على اللجوء لمأوى أو مكان مغلق،

فهؤلاء يميلون للإحاطة بكل ما يجري حولهم، وأن تكون الرؤية حولهم واضحة.

سمعت، وأنا سارح في أفكاري التحليلية التي أحب أن أصفها بالفلسفية، ولو أني لست على ثقة تامة بما يعنيه ذلك، سمعت طرقًا خفيفًا على الباب. لم أرد عليه. ثم تبع ذلك صمت، ولكن الصمت انتهى مع رنين صوت الهاتف فقفزت من الصوفا فزعًا، وجريت نحو الجهاز ورفعت سماعة الهاتف لأرد ب «نعم»!

كانت دقات قلبي تتسارع لحظتها بانتظار معرفة المتصل وما يريده، أو كأني بانتظار حكم محكمة يقرر مصيري. جاء صوت بوب على الطرف الآخر يخبرني أنه قلق على غيابي، وانه يتصل بي من هاتف الطوارئ في الممر المؤدي لغرفتي، ويود أن يزورني، إن لم يكن هناك ما يمنع ذلك...؟ يمنع ذلك!! مرت ثوان قليلة ولكن بدت طويلة قبل أن يخرج صوتي بصعوبة قائلا بأنني متجه صوب الباب لفتحه.

جلس «بوب» بعد أن صافحني بحرارة بكلتا يديه، وهذا ما لم أكن معتادًا عليه، ليس فقط كمشرد ولا حتى كأمريكي.

بادرني بالقول أنه سيكون صريحًا معي، وإن علي إيجاد من أثق به ليأتي ويساعدني في استلام ما ربحته من مال في الكازينو. فأنا بالنسبة لهم شخص لا يمتلك أي كيان قانوني، وبالتالي لا يمكن إصدار شيك مصرفي باسمي لعدم وجود حساب لدي ولا رقم ضمان اجتماعي. كما ليس بإمكاني الخروج من الكازينو بكل ذلك المبلغ، ولا حتى بجزء صغير منه دون أن أتعرض لمخاطر كبيرة.

نظرت في عينيه طويلًا، وقلت له بتردد واضح بأنني متزوج، وإني لا أزال أتذكر رقم هاتف البيت الذي تركته قبل سنوات طويلة. فاجأه ما ذكرت فقام، ربما لا إراديّاً، من كرسيه واقترب مني وسألني بطريقة جادة، وكأنه يلومني: لماذا لم تقل لي هذا من قبل؟ فقلت له أنني لست واثقًا من حقيقة أن زوجتي، أو من كانت يومًا

زوجتي، ترغب حقًا في أن تكون لها أية علاقة بي، ليس بعد كل الذي فعلته بها، وبعد كل سنوات الفراق الطويلة، فربما تزوجت غيري وأصبحت لها عائلتها، ولا تريد سماع صوت يأتي من المجهول ليقلب حياتها رأسًا على عقب! هز رأسه متفقًا معي على ما قلت ولم ينبس بكلمة. ولكني فاجأته باقتراحي أن يقوم هو بالاتصال بها وأن يخبرها أنه يعرف شيئًا عني ومن واقع ردة فعلها وما ستقوله يمكننا اتخاذ القرار فيما علينا القيام به، إما أن تختار هي أن تسمع كل شيء عني أو تختار إنهاء المكالمة، ونفي معرفتها أو علاقتها بي، فينتهي الأمر عند هذا الحد.

هز بوب رأسه ذات اليمين وذات الشمال مادًا شفتيه للخارج، وكأنه غير مقتنع بما قلت، فبادرته بالسؤال: في جميع الأحوال، ليس هناك ما نخسره حتمًا من الاتصال بها، أليس كذلك؟ هنا أتفق معي، وطلب أن أملي عليه رقم الهاتف ليقوم بالاتصال بها فورًا.

ترددت قليلًا، فلم أكن على استعداد للتحدث معها، فقد تسارعت الأمور بطريقة لم أكن على استعداد كاف لمواجهتها، فما الذي سأقوله لها إن طلبت أن تتحدث معي؟

أعطيته الرقم وأخبرته باسمكِ، أو باسم من كانت يومًا زوجتي، وشددت عليه أن يكون رقيقًا معك، فيكفيك ما نالك مني، وأموال الأرض ربما لن تعوضك أو تنسيك ما سببته لك من حزن وهم وعذاب ووحدة في أفضل سني حياتك، أو ما يفترض أنها كانت الأفضل.

ما أن رفع بوب سماعة الهاتف حتى بدأت دقات قلبي بالتسارع، وأصبحت أتنفس بصعوبة أكبر. جريت نحو المطبخ محاولا إشغال نفسي بفتح وإغلاق باب البراد، والبحث بداخله، متجنبا سماع شيء من المحادثة، وكأني لا أود سماع صوت بكاءك على الطرف الآخر من الخط. وجدت زجاجة ماء في البراد ففتحتها وقبل ان أضعها على شفتي المتيبستين حتى سمعت صوت بوب يعتذر

بـأدب وينهـي المكالمة.

عـدت سـريعًا للصالـة ونظـرت لـه، وعلـى وجهـي ترتسـم مختلـف علامـات الاسـتفهام فأجـاب علـى تسـاؤلاتي الصامتـة قائـلًا بـأن زوجتـي تركـت البيت منذ سـنوات، وإن مـن ردت علـى الهاتـف أخبرتهـا إنهـا عـادت لوطنهـا، ولا تعـرف أي شـيئ عنهـا. فقـد اشـترت هـي البيـت مـن البنك، وهـي التـي تدفـع أقسـاط الرهـن التـي عليـه.

وجمـت لسـماع شـيء لـم أكـن أتوقعـه. لـم أقـل شـيئًا بـل جلسـت متهالـكًا علـى الكرسـي المقابـل لبـوب، الـذي لـم يبـدو أنـه تأثـر كثيـرًا بمـا سـمع. نظـر لـي وقـال، لقـد حـان الوقـت لأن نتـرك كل شـيء وراءنـا، وأن نسـتمتع بحياتنـا. مـا رأيـك لـو قمـت بالاتصـال بإحـدى وكالات «الإسـكورت» وطلب إرسـال فتاتين لتسـليتنا؟ وعندما نظرت له بنظرات بهـا الكثيـر مـن الدهشـة، أردف قائلا: إن الكازينو سـيتولى الأمـر، وليـس علـي أن أهتـم، حتـى أكثـر رغباتـي غرابـة وصعوبـة سـتحاول الإدارة الاهتمـام بهـا ومحاولة تحقيقها!

نظرت له غير مصدق ما عرضه علي للتو، وصيغة الجمع التي تكلم بها. لم أقل أو أعلق بشيء، بل شعرت أنني أود الخروج من الجناح وخسارة كل دولار ربحته، والعودة لسابق حياتي مع رفيقي دربي، فلا عروض ولا مجاملة ولا شيء من هذا القبيل. خرجت من الجناح مسرعًا تاركًا بوب خلفي وهو لا شك في حيرة من تصرفي غير المتوقع، ولا شك أنه شعر بالإهانة أو على الاقل بالاستغراب من تصرفي المفاجئ فلحق بي وأوقفني بأدب معتذرًا، وقال إنه يود أن يكون صديقي وأن يساعدني في إيجاد حل لوضعي. طلب مني بحرارة العودة للجناح ليكلمني قليلًا عن سياسات الكازينو ولعب القمار عمومًا.

هدأت قليلًا، وعدت برفقته وأنا أشعر بالإحباط. طال سكوتي فحاول تلطيف الجو قائلًا إن أمورًا كثيرة في حياتنا نحتاج لمعرفتها بصورة جيدة، وغالبًا لا سبيل إلى ذلك بغير التجربة الفعلية أو القراءة عن

الموضوع المراد معرفة المزيد عنه، كالاقتصاد والتأمين والتاريخ، فجميعها تتطلب الدراسة المنتظمة، أو على الأقل قراءة عدة كتب للإلمام بالموضوع جيدًا. أما مع القمار، وبأي شكل أو صورة كان فالأمر يختلف. فليس لمهارات الإنسان وشخصيته وتجاربه في الحياة إلا دور محدود في الربح أو الخسارة. كما أن هذه الأمور تختلف من شخص لآخر وتتفاوت من لاعب لآخر. وقال إنه لا يستطيع أن يخبرني كيف أربح، ولو كان يعرف لما استمر في وظيفته، وأن كل ما يقال أو يشاع من كلام عن وجود تعاون أو تواطئ بين بعض موظفي أو إدارات نوادي القمار وبين بعض اللاعبين، وتمكينهم من تحقيق الربح لا تعدو أن تكون مجرد هراء. فلا أحد يتحكم في أية لعبة كانت بأي شكل من الأشكال... ليس فقط لصعوبة الأمر بل بسبب القواعد التي وضعت مع الوقت والتي قللت من التلاعب إلى الحد الأدنى، أو إلى الصفر، وزادت من فرص الكازينو في الربح، والأهم من

ذلك أن وجود مثل هذه الأمور يعني إفلاس الكازينو في يوم واحد، فكل موظف سيسعى للتواطؤ مع صديق أو قريب ومساعدته على تحقيق ربح يكون له فيه نصيب. ومن الأمور التي تتبعها الكازينوهات للحد من تلاعب المقامرين وضع سقف أعلى للرهان في ألعاب محددة كالروليت مثلًا. وشرح بوب بشكل مطول ما يعنيه ذلك، حيث أن لنظرية الاحتمالات دور في الكسب في هذه اللعبة. فلو قام لاعب بالرهان على رقم محدد بدولار مثلًا وربح ذلك الرقم فسيحصل على 36 ضعفًا. وإن خسر فسيحاول تعويض خسارته بالرهان بدولارين مثلا على نفس الرقم، وهكذا يتصاعد رهانه على الرقم نفسه مرة تلو الأخرى إلى أن تنطبق نظرية الاحتمالات وتقع الكرة على ذلك الرقم، مهما طال الزمن، وبالتالي يعوض اللاعب كل خسائره.

ومن أجل وضع حد لمثل هذا التلاعب قامت الكازينوهات في العالم بوضع حد للمبلغ الذي يسمح

بالمراهنة به على رقم معين لتقليل احتمالات الربح وليس رحمة باللاعب.

وحيث أن ألوان الأرقام من 1 إلى 36 هي إما حمراء أو سوداء، فيمكن للاعب الرهان على أحد اللونين، وفي هذه الحالة فإن الاحتمال هو أن يربح أو يسخر هي بنسبة 50 ٪ ولكن وجود الصفر، بلونه الأخضر قد يتسبب في خسارة نصف ما راهن به إن سقطت الكرة على الصفر. كما أن ما سيربحه بالرهان على اللون لا يزيد عن 1 إلى 1 أي أنه سوف يحصل من ربح يزيد مرة عن المبلغ الذي راهن به، أي دولار مقابل كل دولار راهن به! وما يسري من قانون على الأرقام يسري على الألوان والأرقام الفردية والزوجية، فجميعها تخضع لنظرية الاحتمالات، فإن راهنًا على رقم معين مليون مرة مثلًا فإن نظرية الاحتمالات تؤكد بما لا يقبل الشك بأننا سنربح 500 ألف مرة وسنخسر 500 ألف مرة. وبالتالي لو قمنا بالمراهنة على اللون الأحمر أو

الأسود، وتابعنا رهاننا وقمنا بزيادة المبلغ في كل مرة، فإن نظرية الاحتمالات تفترض أن اللون الذي تم الرهان عليه سيأتي في نهاية الأمر لا محالة، ولو ربح المقامر في نهاية الأمر فإنه سيسترجع كل ما خسره، مع ربح بسيط. ولوضع حد لهذا الاحتمال قامت الكازينوهات بوضع سقف على مبلغ الرهان على أي رقم أو لون أو عمود أو دزينة، بحيث لا يمكن تجاوز ذلك المبلغ. وسبق أن استغل البعض هذه الثغرة في الإثراء، قبل أن تنتبه نوادي القمار لها، وتسدها إلى الأبد.

وهكذا مع الأرقام الزوجية والفردية وغير ذلك من تفاصيل، وجميعها تعتمد على نظرية الاحتمالات، فكلما كان احتمال الربح أكبر كانت المكافأة أو الربح أقل، والعكس صحيح. أي كلما كانت احتمالات الفوز أقل زادت المكافأة أو نسبة الربح، وهذا هو النظام نفسه المعمول به في سباقات الخيل، وفي كل نشاط بشري آخر، فكلما كان حظ جواد ما بالفوز بشوط السباق كبيرًا كلما قل ما

تعطيه مكاتب المراهنة من ربح للمراهنين عليه. وكلما قل حظ الفرس أو الحصان بالفوز، حسب رأي مكاتب المراهنة والخبراء، زاد مبلغ الربح لمن سيراهن عليه، ولهذا فإن الكازينوهات أو شركات المراهنة أو الرهونات هي الرابحة غالبًا!

واستطرد بوب قائلًا: أعيد وأكرر، لا أستطيع لا أنا ولا أية قوة أن تجعلك تربح، ولكن بإمكاني تقديم نصائح لك يمكن من خلال اتباعها تقليل خسائرك أو عدم المخاطرة بشكل كبير، وزيادة احتمالات الربح في لعبة القمار التي تحبها، أو ألعاب الكازينو الأخرى بشكل عام.

من المهم أن تلعب أو تقامر في الكازينو المعروف بسمعته وتقاليده، والذي لا يتحمل خسارة صيته من أجل مبلغ من المال. كما أن الكازينوهات المحترمة تقوم عادة بالصرف جيدًا على تدريب موظفيها، فجودة الديلر وخبرته وسرعته ودقته في الملاحظة وفي الحساب أمور في غاية الأهمية.

ولا يجب أن تنخدع بالمكافآت الترحيبية الكبيرة التي تقدم في لعبة قمار ما، أو لكل الألعاب بشكل عام. وربما تريد اللعب بمبالغ قليلة نسبيّاً، بغرض التسلية أو تمضية الوقت، وبالتالي يجب عدم الانجرار وراء الكازينوهات التي تضع حد أدنى للمقامرة بحيث لا يمكن اللعب بأقل من مبلغ معين. كما يجب التأكد أيضًا من متطلبات رهان الكازينو في لعبة القمار التي تحبها، أو ألعاب القمار بشكل عام. ومن الضروري الإلمام جيدًا باحتمالات لعبة القمار التي تستهويك، والالتزام بها. فالمغامرة في لعبة لا تعرف قوعد لعبها قد يكلفك الكثير. كما عليك أن تضع سقفًا، أو حدًّا للمبلغ الذي تود المقامرة به، ولا تتعداه مطلقًا. فالقاعدة الذهبية تقول إننا يجب ألا نخاف من خسارة مبلغ في القمار، بل علينا الخوف كثيرًا على الذي يصر على تعويض أو استرداد خسائره من خلال المغامرة بأموال أخرى، فهو غالبًا لن يحصد سوى خسائر أكثر.

كما يجب ألا ننخدع بنظرية أننا كلما راهنا بمبلغ أكبر كلما زادت فرصتنا في تحقيق ربح أكبر... نجد في هذه الحالة أن المقامر ينسى غالبًا أنه معرض أيضًا لأن يخسر مبلغًا أكبر! فإن كان الحظ هو المقياس فإن حجم المبلغ ليس عاملًا حاسمًا هنا. أما ألعاب الورق، والتي للمهارة والخبرة دور ما فيها مثل البلاك جاك، فإن المقامرة بمبلغ كبير لا ينصح به أيضًا، لاعتماد اللعب أساسًا على الحدس الشخصي. وبشكل عام، كلما قل مبلغ الرهان كلما زادت عدد مرات الربح، وبالتالي زادت معها احتمالات الفوز.

ومن القواعد الهامة الفصل بين النقود التي ربحتها عن النقود التي أتيت بها للكازينو للرهان عليها، هذا الفصل أو هذه الطريقة تساعد في الحد من الخسائر، وتنهي اليوم غالبًا بدون خسارة كل ما نملك من أموال.

ومن أهم القواعد التي على اللاعب معرفتها تلك التي تتعلق بمتى يجب التوقف عن اللعب ومغادرة الكازينو،

وهذا ما لاحظته معك! فقد كنت دائمًا تتوقف عن اللعب في الوقت المناسب. فكثيرون لا يعرفون متى يجب عليهم القيام بذلك، والغالبية تنجرف كثيرًا وينتهي بها الأمر لخسارة كل شيء. تذكّر دومًا أن الهدف الرئيسي من اللعب هو المتعة فقط، وليس التسبب في خسارة النادي. وان لا تتخطى المبلغ الذي حددته مسبقًا للرهان كما ذكرت لك سابقًا

يعتقد الكثيرون إن أكثر الألعاب ربحية للكازينو هي الروليت، او البلاك جاك، ولكن الحقيقة أن جزءا كبيرا من دخل نوادي القمار يأتي من ماكينات السلوت Slot، وهذه حقيقة لا يعرفها غالبية اللاعبين، ولهذا تجد أن عدد هذه الآلات كبير في أية صالة قمار، ويتم توزيعها بشكل مدروس في أماكن مختارة. ويرتبط احتمالات الفوز في هذه الآلات الجميلة الشكل على الحظ الذي يعتمد على حصول اللاعب عليها على صور وأشكال مرسومة على اسطوانات تدور مع بعضها البعض

وتتوقف فجأة. وكلما تطابقت طورها على خط واحد، أو تزامن توقف الأسطوانات على أشكال محددة، كلما زادت حظ اللاعب عليها في الربح. وفي ماكينات السلوت على الانترنت أو في مواقع الكازينو الحديثة فإن فرص وقوف الماكينة على رمز أو شكل معين أو عدد معين من الرموز يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتصميم الافتراضي للآلة، أسوة بما هو على ماكينات السلوت المتواجدة في أندية القمار الحقيقية. وتخبرنا تصميمات ماكينات السلوت هذه وطرق محاكاتها بالماكينات الموجودة على الانترنت أن كل توقف لبكرة أو اسطوانة ماكينة السلوت الفعلية يمكن أن يتوافق مع عدد أكبر من التوقفات للبكرة الافتراضية، كما أن فرص استقرار البكرة الفعلية على صورة معينة يعتمد على عدد معين من الافتراضات لتوقف البكرة الافتراضية ومدى التوافق بين الحقيقي والافتراضي.

ولكي تتوافق بكرات ماكينة السلوت ويربح اللاعب الجائزة الكبرى، فإن الاحتمالات هنا تكون 1 لكل 643

مرة. وعندما تكون الجائزة الكبرى بالملايين تكون الاحتمالات واحد إلى 260 ألف.

أبديت ضجري مما كنت أسمع، فاعتذر بوب، وقال إنه أراد فقط أن يعطيني فكرة أو جرعة من المعلومات قبل أن اذهب وأغامر بما أملك.

مددت يدي، دون أن أشعر، وقربتها لفمه وكأنني أطلب منه أن يصمت، فقد كان غالبية ما تطرق له غير مفهومًا لي تمامًا. ثم قلت له، دون سابق تمهيد، ولا أدري كيف طرأت الفكرة على بالي: أود منك يا بوب أن تساعدني في العودة لسوريا، وطني الذي تركته قبل أعوام طوال.

صمت وهو ينظر لي بما يشبه الحيرة، وقال: ولكن كيف يمكنني فعل ذلك؟ فقلت له أنه مدير في كازينو عالمي له نفوذه، وإن عليه الاتصال بقنصلية سوريا في لوس أنجلوس، الأقرب للاس فيجاس، إن وجدت، أو بالسفارة في واشنطن، واستخراج جواز سفر لي، أو حتى تذكرة مرور كمواطن سوري تعطيني الحق في العودة

لوطني.

هز بوب رأسه وقال أنه سيري ما بإمكانه القيام به. أحسست أنه شعر بالندم على الاستعجال في الموافقة على طلبي، فسرعان ما بدا عليه التردد، وكأنه أسقط بيده، ولكن سابق تعهده بمساعدتي ربما دفعه لأن يوافق فورًا على طلبي، فليس بإمكانه الادعاء بالصداقة ورفض المساعدة في الوقت نفسه.

أخبرني، قبل أن يغادر الجناح بأنه بحاجة لبعض الوقت لإجراء بعض الاتصالات الهاتفية وسؤال القانونيين في الإدارة، وربما سيتطلب الأمر قيامهم بطرح بعض الأسئلة الخاصة، ومعرفة أين سأتواجد ضروري. وقال إنه سيبذل جهده ويضغط باتجاه استخدام أصحاب الكازينو نفوذهم في تلبية ما طلبت بأسرع ما يمكن، وإن فرق الوقت بين لاس فيجاس وواشنطن على الساحل الشرقي يعمل لصالحي.

هممت بالخروج معه، ولكنه قال بأن من الأفضل

بقائي في الجناح لبعض الوقت، فقد يتطلب الأمر معلومات محددة.

أخذت قلما وورقة من درج المكتب الموجود في طرف الصالة ودونت عليها اسمي الكامل وعنوان بيتنا في الشام، واسم زوجتي الكامل قبل الزواج، والأهم من ذلك دونت اسم والدتي، فأنظمة دولنا تهتم كثيرًا بمثل هذه الأمور للتيقن من هويات البشر لديها. تركت الورقة أمامه، وخرجت، مطبقًا باب الجناح خلفي قائلًا بأنني سأكون في نفس المكان الذي يجدني فيه دائمًا. أحسست برجفه تنتابني وتعرق لم أعهدهما من قبل. وتبعني بوب وهو يقول بأنه سيرسل في طلب المصور ليلتقط لي بعض الصور الشخصية والضرورية لاستخراج الجواز أو تذكرة المرور. أومأت برأسي موافقًا، واتجهت لمصعد الطابق الذي كنت فيه، دون تعليق

النهاية

جلست على طاولة الروليت، ولا أدري لماذا، ربما لرغبتي في أن أنسى ما أنا فيه أو مقبل عليه. شعرت برغبة في القيام بشيء مختلف يذهب عني قلقي، بعد أن قررت العودة لسوريا...! فعودتي لوطن تركته بحثًا عن حياة أفضل يعني فشل ما سعيت لتحقيقه، وربما سيكون هذا موضوعا للتندر في محيطي، وخاصة أنني أعود من حياة تشرد سابقة، ويبدو أنني نسيت الأموال التي ربحتها في الكازينو، ولكن كيف السبيل لسحبها والاستفادة منها، وأنا بوضعي الحالي وهويتي المبهمة؟

عليّ أن أفعل ما يلهيني فسينفجر رأسي بسبب عجزي عن الإجابة على عشرات التساؤلات التي أصبحت أسمع طنينها وهي تدور في رأسي.

انتشلني صوت نادل من هواجسي وهو يسألني إن كنت على ما يرام. ويبدو أن ما كنت أشعر به من حيرة وإرهاق

بدى واضحًا على وجهي. شكرته وأنا أتمتم بكلمات تعني أنني بخير، وطلبت منه أن يحضر لي فنجاناً من القهوة.

جلست على طاولة الروليت وطلبت من الديلر أن يعطيني عشرة آلاف دولار من حسابي. طلب هذا من أحد الموظفين الاهتمام بطلبي، وكان المبلغ أمامي وبتصرفي حتى قبل أن تأتي الموافقة.

جاء بوب وأخبرني أنه أجرى كل الاتصالات المطلوبة، وهو بانتظار رأي الإدارة والجهات القانونية. وأضاف أنه سيجلس في المقهى القريب بانتظار ما سيستجد من أمور ويخبرني بها، وأن المصور في طريقه إلينا، وسننتقل لجانب من المطعم لالتقاط الصور.

راهنت بمبلغ 500 دولار على الرقم صفر وبمبلغ مماثل على الرقم واحد. لفت الديلر نظري إلى أن الحد الأعلى المسموح الرهان به على أي رقم، على طاولة القمار تلك، هو 300 دولار، فتذكرت ما سبق أن ذكره بوب عن هذا الأمر.

سحبت كل ما راهنت به، وغيرت رأيي، وأعدت وضع مبلغ 200 دولار على الرقم 7 ومبلغ 400 دولار على الرقم 8. دارت عجلة الروليت البراقة باتجاه عقارب الساعة، ودارت الكرة البيضاء في الاتجاه المعاكس، ودارت معها عيون المقامرين كل يمني النفس بسقوط الكرة الساحرة في حيز الرقم الذي راهن عليه. كنت أعتقد أنني أسمع دقات قلوب المراهنين، وتبين أنني كنت في الحقيقة أسمع دقات قلبي المضرب، وأنا أسعل بقوة.

خلال ثوان تباطأ دوران الكرة ودوران العجلة، وبدأت الكرة الصغيرة في البحث عن الرقم الذي ستختاره وتسقط في حيزه، وكان خيارها من الرقم واحد وحتى الرقم 36 إضافة إلى الرقم صفر، وسيحصل صاحب الرقم الربح على 36 ضعف مبلغ رهانه، أي من راهن ب 100 دولار سيحصل على 3600 دولار، وهكذا. ويخسر البقية المبالغ التي راهنوا بها على الأرقام الأخرى، وكنت أحدهم فيما يتعلق بالرقم الآخر الذي راهنت عليه.

سقطت الكرة في نهاية الأمر على الرقم 8 وكنت ولاعب آخر الوحيدين الذين راهنا على هذا الرقم. وطبعًا خسرت ما راهنت به على الرقم 7. شعرت بسرور ليس لأنني ربحت بل لأن جهلي باللعبة هو الذي جعلني أربح فقد كان رهاني الأول على الرقم صفر والرقم واحد، ولولا طلب الديلر مني ألا اضع على الرقمين أكثر من 300 دولار لما غيرت رأيي ورهاني في آخر لحظة.

أعطاني الديلر مجموعة من الفيش، بينها واحدة عليها الرقم «عشرة آلاف دولار» ولا شعوريّاً دسستها في جيب بنطالي الخلفي، واحتفظت ببقية الفيش أمامي.

لم يطل جلوسي على طاولة الروليت كثيرًا، ومع هذا تجمع أمامي مبلغ كبير. نظرت خلفي وإذا بعيني تلتقيان بعيني بوب، وكأنه كان ينتظر إشارة مني. طلبت منه، بهزة من رأسي، أن يقترب. قلت له بأنني سأتوقف عن اللعب، وأود مساعدته في إضافة المبالغ التي أمامي لرصيد حسابي في الكازينو. تبين خلال دقائق أن ما

حققته من ربح قد تجاوز المائة وثمانين ألف دولار!!

أحضروا لي إيصال الإيداع، فوضعته في جيبي الخلفي، دون كثير اكتراث، فاصطدمت أصابعي بفيشة العشرة آلاف دولار، التي نسيت أمرها، فخطرت على بالي فكرة وسألت بوب إن كان بإمكانه أن يرافقني لمكان أود زيارته، فأبدى استعداده وسألني إن كنا بحاجة لسيارة من الكازينو، فأومأت برأسي مؤيدا. وخلال دقائق كانت سيارة سوداء داكنة النوافذ بانتظارنا.

ما إن خرجت من أبواب الكازينو المشرعة حتى تبين لي أن الوقت كان فجرًا، وكنت أظن، وأنا داخل الكازينو، أن الوقت لم يتجاوز ساعات المساء الأولى. شرحت للسائق المكان الذي أود أن يأخذنا إليه على أطراف الستريب. نظر لي بوب متسائلًا فقلت له بأني تركت رفيقي في التشرد، السابق أو اللاحق، تركته قبل أيام نائمًا في المكان الذي طلبت من سائق الكازينو أن يأخذنا له.

رأيت الفيات القديمة في مكانها، وصديقاي المشردين يسندان ظهريهما لإطاراتها، وكانا كعادتهما في سبات عميق. أشرت لمايكل وأنا أقول لبوب بأنني أثق بهذا المشرد أكثر من ثقتي بنفسي، وإنني ربما أفكر يومًا في تسجيل كل رصيدي في الكازينو باسمه وإنني على ثقة بأنه يحمل هوية ويعرف رقم الضمان الاجتماعي الخاص به، ويستطيع فتح حساب مصرفي، ويحول لي مبلغاً لحسابي في سوريا!!

بهت بوب مما سمع وقال بأن علينا العودة لغرفتي في الكازينو للتفكير في الأمر. فمن الخطورة البقاء بتلك السيارة الفارهة في ذلك المكان المنعزل والمشبوه. وقال أنه سيجد حتمًا حلًا لوضعي. طلبت منه أن يتريث، وينتظرني لدقائق. وقبل أن أترجل من سيارة الكازينو طلبت من السائق ورقة وقلما، دونت على الورقة رسالة لمايكل أعتذر فيها عن غيابي الذي طال وطلبت منه أن لا يقلق بشأني، وأنني أرفق بالورقة فيشة بقيمة عشرة

آلاف دولار مدون عليها اسم الكازينو، وعليه السعي للحصول على مقابلها بأية طريقة كانت، وأن صديقي بوب، الذي دونت رقمه على الورقة سيساعده حتمًا في صرفها.

دسست الورقة وبداخلها فيشة العشرة آلاف في جيب مايكل، وهو يغط في نومه الثقيل، وانسحبت متراجعًا بهدوء إلى السيارة وعدنا للكازينو، دون أن ينطق أحدنا بكلمة.

الاتصال بنوره

سمعت طرقات خفيفة على الباب أيقظتني من نوم لم يطل كثيرًا، أو هكذا شعرت. فتحت الباب فإذا ببوب يخبرني، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه، بأن إدارة الكازينو نجحت في الحصول على تذكرة مرور صالحة لسفرة واحدة، بدلًا من جواز السفر الذي اعتذرت السفارة عن إصداره. وأنهم اشترطوا وجود تذكرتي سفر مع الطلب، واحدة من واشنطن إلى نيويورك، والثانية من نيويورك إلى دمشق، لتبقى تذكرة المرور صالحة للاستعمال، وإن أمامي 24 ساعة تقريبًا للتقدم لاستلام تذكرة المرور، ولن تكون صالحة بعدها. وكل هذا يعني أن علينا التحرك بسرعة، فالأمر يتطلب السفر إلى مطار واشنطن العاصمة، حيث سيكون موظفًا من السفارة السورية بانتظاري للتأكد من هويتي وأخذ بصماتي.

شعرت بمشاعر مختلطة تنتابني. لم أستطع التعليق

على ما فاجأني به بوب من أخبار سارة وحزينة ومربكة، فلم أكن أتصور أن الأمر سينتهي بكل تلك السرعة وهذه السهولة، وبمدى نفوذ أصحاب الكازينو. قمت واقفًا واتجهت لبوب وضممته لصدري، وأنا أشعر بالعرق ينساب من رقبتي وإلى سلسلة ظهري.

لم يبادرني بوب العناق وأبقى يديه إلى جنبه، متحفظًا، وقد تفهمت أو قدرت تصرفه، فربما تماديت قليلًا في إبداء حقيقة مشاعري، وخرجت عن حدود اللياقة.

طلب مني بوب الموافقة على خصم مبلغ 11 ألف دولارًا، ثمن تذكرة السفر ومصاريف إصدار تذكرة المرور الرسمية، من حسابي في الكازينو، فمددت يدي للفيش التي كانت معي وسلمته كومة منها، فرفض مد يده، وقال إن ذلك يخالف التعليمات، فليس بإمكانه أخذ أي مبلغ مني، ومن الأفضل خصم المبلغ من حسابي.

شعرت في تلك اللحظة بأنني أصبحت أتصرف كرجال الأعمال الأثرياء.

أخذ بوب الورقة وقال بأنه سينهي بعض الأعمال ويعود لي سريعًا، فأوقفته وقلت له إني بحاجة لأن أجري مكالمة مع بيت أهل زوجتي، وستكون المكالمة حاسمة، وربما على نتيجتها سأقرر تأجيل سفري قليلًا، أو ربما إلغاء فكرة السفر كليّاً!

شعرت أن بوب قد تضايق من كلامي، وكيف أن كل ما بذله من جهد لاستخراج التذكرة قد يذهب هباء، ولكنه لم يقل شيئًا، بل استدار وذهب لحال سبيله بعد أن أخبرني أن بإمكاني الاتصال بسوريا من هاتف الغرفة.

يا لها من مهمة صعبة. كيف يمكنني الاتصال بك؟ وهل ستكونين في بيت والديك، أو في بيت من تزوجته تاليًا؟ وهل لا يزال رقم الهاتف نفسه في بيت أهلك؟ ماذا سيكون موقفي إن رفضت الحديث معي، هذا إذا لم تخني الذاكرة ونسيت رقم الهاتف؟

لا أدري عدد المرات التي جلست فيها على طرف السرير، ورفعت سماعة التلفون وأعدتها لمكانها، ربما

ترددت أكثر من خمس أو ست مرات.

لم أشعر بمثل تلك الحيرة في حياتي، خاصة بعد أن خلت لسنوات طويلة، وحتى اليوم واللحظة أنني ودعت الحيرة وقطعت الصلة بالقلق وتقليب الأمور والتفكير في العواقب والتبعات، وإنها ولت تمامًا من حياتي، وها هي تعود لي أقوى مما كانت عليه قَبلًا!

استمر تعرقي بالرغم من جو الغرفة البارد نسبيّاً، وأحسست إن حتى يداي أصبحتا رطبتين.

رفعت السماعة وألصقتها بأذني واستمعت للحظات طالت للطنين الخافت الذي كان يصدر منها، ثم انقطع الصوت فأعدتها لمكانها، ثم اتخذت قراري وضغطت على الأرقام التي أتذكرها بسهولة ويسر كأنها تلمع أمامي كما تلمع الأرقام على شاشة آلة السلوت.

جاء صوتك خافتًا ومتسائلًا «ألو...مين؟» بدا وكأنه يأتي من جب عميق، وزمن مضى. شعرت بالخجل من الرد، وكدت أضع السماعة في مكانها، إلا إن تكرار

سؤالك «ألو...مين؟» شجعني على الرد.... والباقي تعرفيه جيدًا.

شعرت براحة لا متناهية فلم تطيلي المكالمة، ولم تطرحي أية أسئلة، ولم أسمع منك ما كنت أتوقع سماعه من أنك لم تستطيعي الانتظار أكثر وأنك كونت علاقة مع غيري، وكنت سأتفهم، أقبل ذلك دون تردد، أو سماع أي شيء آخر من هذا القبيل، ولكن لا شيء خلاف كلمات مقتضبة وقليلة. وضعت السماعة في مكانها وأنهيت المكالمة وشعور غريب بالراحة يغمرني. بدا الأمر وكأنني لم أتركتك إلا قبل ساعة، وغيابي كان لإحضار الخبز من المخبز القريب. كلماتك القليلة أعطتني الاطمئنان الذي كنت بحاجه له، وسؤالك الوحيد عن موعد طائرتي أكد لي أنك ربما قد غفرت لي كل خطاياي. ولم أنتبه، وأنا أستعيد ما تبادلناه من كلمات قليلة، لما ذكرتيه من أنك وآدم ستكونان بانتظاري في المطار. شدة ارتباكي في تلك اللحظة لجمت لساني عن السؤال عمن يكون آدم

هذا؟

كان علي أن أخبر بوب بما حصل، فقد بدا عليه الارتباك عندما كلمته آخر مرة وقلت له بأنني سأتصل بك، وقد لا أسافر، بعد كل ما بذله من جهد في استخراج جواز أو تذكرة المرور.

نزلت للصالة، ولمنطقتي الأثيرة من الكازينو الفسيح، وجلست على المقهى، وما هي إلا لحظات حتى حضر بوب وبدا الارتياح مرتسمًا على وجهه بوضوح. بادرني القول بأن لديه خبر سار، فقلت له وأنا أيضًا لدي خبر سار! فطلب سماع خبري أولًا، فأخبرته عن مكالمتي الموفقة والمريحة معك، وكيف أنني على أتم الاستعداد لأن أمضي في خطتي وأسافر خلال ساعات، كما هو مخطط لي. سألته بشوق ظاهر عن خبره السعيد فقال بأنه اتفق مع الإدارة على انتظار وصولي إلى سوريا، ونجاحي في فتح حساب في أي مصرف معروف هناك، وسيقوم الكازينو بتحويل ما لدي من رصيد إلى حسابي

في الشام، ولكن على دفعات شهرية، إن تطابق اسم الحساب مع الاسم المدون في تذكرة المرور، التي احتفظوا بصورة عنها، والتي أصدرتها السفارة السورية في واشنطن. سرني ما قاله كثيرًا، وشعرت لأول مرة في حياتي، أنني شخص غني ولا علاقة لي بالتشرد، وهو شعور غريب وجديد.

أحسست بدافع داخلي يطلب مني العودة للعمل، لتحقيق الربح، للانتصار، فكل ما جنيته من قبل لم يكن يدخل السرور لنفسي لأنني كنت أعتقد أنه ليس مالي، ولن أتمكن يومًا من إخراجه من الكازينو والاستفادة منه. ولكن بعدما سمعته من بوب عن موافقة واستعداد الكازينو للاعتراف بهويتي وإمكانية تحويل المبلغ للحساب الذي سأفتحه في سوريا كل ذلك أشعرني بالرغبة العارمة في الفوز وجني المال.

قادتي قدماي بصورة لا إرادية لطاولة الروليت، التي سبق وأن حققت فيها أعلى الأرباح. وقررت لحظتها أن

ألعب بطريقة محترفة كما كان يفعل بقية اللاعبين، وليس بالطريقة غير التقليدية التي كنت أتبعها.

طلبت من الكازينو خمسين ألف دولار، فسمع بوب بالمبلغ الذي طلبته من الديلر، فاقترب مني وقال أن من الأفضل الانتقال للعب على طاولة خاصة، وبعيدًا عن أعين الفضوليين. وافقته ومشيت خلفه بهدوء، بعد استلام المبلغ.

كانت مشاعر غريبة تكتنف ضلوعي في تلك اللحظة وأنا أسير خلف بوب. مشاعر من قرر أن يصبح ثريّاً بالفعل. سيكون بإمكاني أن أشتري لمن أحب كل ما سيعوضه عن سنوات الشقاء والتعب. كنت على ثقة بأن حظي سوف لن يخونني، فأنت أصبحت الآن معي، وعُت ثانية لتسكني بين ضلوعي، ولكن رئتي أصبحتا تتعباني أكثر، مع ازدياد نوبات السعال.

طلبت علبة سجائر، فقد كنت مضطربًا داخليّاً، وكنت أشعر بعدم انتظام دقات قلبي، فأحيانًا تتسارع وأحيانًا

أخرى تتباطأ. لم أكن يومًا مدمنا على التدخين، ولكني أحسست لحظتها أنني بحاجة للنيكوتين، أو لأن أمسك بشيء بين أصابعي، وأنا أقلب كومة الفيش أمامي.

جاء الديلر وأزال القفل عن مجموعة الفيش، واستوى المراقب على كرسيه العالي الذي يمكنه من ملاحظة كل حركة، وبدأت باللعب. ربحت الكثير وغامرت بمبالغ كبيرة جدًا، ولكني كنت أخسر أيضًا وأطلب من الديلر، الذي تم تغييرة مرتين أو ثلاث، سحب مبالغ إضافية من حسابي مع الكازينو، وكانوا يلبون طلبي بسرعة قياسية. تكوم الفيش أمامي واختفت وعادت للتكاثر لتعود وتختفي. كنت أشعر بأن أرباحي ستتزايد، وبأن رصيدي لا يزال كبيرًا، ويجب استغلال ما تبقى من وقت لتحقيق ضربات كبيرة، وهذه الرغبة في استعادة ما كان أمامي من فيش دفعتني للمغامرة بمبالغ أكبر، ولا أتذكر بعدها جيدًا حقيقة ما حصل!

نظرت حولي وأنا مشدوه، فقد انهيت تدخين علبتي

سجائر، وكان رمادها متناثرًا على كل شيء أمامي، حيث لا فيش أمامي ولاشي غير علبة سجائر فارغة، وصوت بوب الآتي من بعيد يأتيني مختلطا بصوت الديلر الذي وجه لي سؤالا لم أفهمه، قال: سيدي، هل أدير العجلة؟

وصل في تلك بوب حاملًا مغلفًا متوسط الحجم، وصوته يملئ الصالة التي كنا فيها، ملوحا بالمغلف مستبشرًا، قائلًا بأن كافة أوراقي الرسمية قد وصلت من السفارة، وعلي التوقف عن اللعب والاتجاه نحو الطائرة التي ستقلني لواشنطن العاصمة ومنها لنيويورك ثم دمشق، ولا داع للعودة للجناح فليس أمامي وقت أضيعه. كما أن ليس هناك شيء يتطلب أخذه من الجناح. ثم أردف قائلًا وهو يبتعد: سأجري مكالمة وأعود لك خلال ثوان لتوديعك، ولا تقلق بخصوص حسابك فسأتولى الأمر شخصيّاً.

استدرت للديلر وسألته مستفسرا أن يعيد سؤاله، فقال أنه كان يطلب موافقتي على إدارة عجلة الروليت!

فقلت له أن يقوم بذلك بسرعة قبل أن يعود بوب، وأن يصرف لي مبلغ خمسين ألف دولار من رصيدي لأكمل اللعب! فنظر لي بما يشبه الشفقة وقال: أعتذر منك سيدي، لقد استنفذت كامل رصيدك في الكازينو، ولهذا سألتك إن كنت تريد مني التوقف أو إدارة العجلة فقط لتعرف الرقم الرابح!!

لا أدري إن كان بوب قد سمع ما قاله الديلر، فقد عاد ووضع يده خلف ظهري ليستعجل قيامي، وربما لاحظ عدم وجود أي شيء أمامي غير منفضة مليئة بأعقاب السجائر، وعلبة كبريت نصف فارغة.

بدأت يداي بالارتجاف وأنا أضعهما على الطاولة في محاولتي الوقوف. وشعرت باصطكاك ركبتاي. لا شك أن حالتي كان يرثى لها. أعدت الجلوس وأنا مرتبك فيما علي القيام به. صوت بوب وهو يخبرني بأن السيارة التي ستقلني للمطار قد وصلت انتشلتني من أفكاري، فتحاملت على نفسي ثانية، واتجهت نحو باب الخروج ،

وأنا أحاول فتح المغلف للتأكد من محتوياته.

كانت سيارة الكازينو الليموزين السوداء بانتظاري. ودعني بوب بحرارة وطمأنني ثانية، وطلب مني ألا أقلق، فهو سيهتم بكل شيء، وإن علي الاتصال به فور وصولي لسوريا، وإبلاغه بتفاصيل حسابي. تيقنت حينها أنه لم يسمع ما قاله الديلر عن خسارتي لكل ما كان لدي في الكازينو، وكيف إنني أخرج منه كما دخلته، فهذه هي سياستهم وربما كان ذلك سبب استضافتهم لي في الجناح، وكرمهم غير المحدود معي.

جلست في المقعد الأمامي للسيارة الليموزين، بجانب السائق الجامايكي، وردًا على نظراته المتسائلة، قلت له أنني أود المرور على صديق لأخذ حقيبتي، وسأدله على الطريق.

طلبت منه التوقف بالقرب من مكان وقوف الفيات القديمة، وأحسست بالراحة لعدم وجود مايكل أو توماس هناك. اتجهت للمكان الذي دفنت فيه الصندوق المعدني،

وهو كل ما تبقى لي من «الولايات المتحدة الأمريكية». فتحت الغطاء، وتفحصت المحتويات، ووضعت أوراقي التي كنت أحملها داخل الصندوق.

وقعت عيناي على صحيفة يوم الأحد الذي دخلت فيه الكازينو، والتي سبق أن استخدمتها كمخدة، فحملتها معي والصندوق وهرولت عائدًا للسيارة.

جلست هذه المرة في المقعد الخلفي، وكأني رئيس دولة تم الانقلاب عليه أرسل ليقضي بقية حياته في السجن. نظرت لعناوين الصحيفة الرئيسية، فلم تعني لي شيئًا. نظرت لتاريخ صدورها، وسألت السائق، الذي كان لا يزال مشدوها من غريب تصرفاتي، عن تاريخ اليوم فقال بأنه الأربعاء 12 سبتمبر! أعدت النظر للتاريخ المدون على الجريدة فكان، الأحد 9 سبتمبر! وهذا يعني أنني دخلت في عالم غريب وأصبحت فاحش الثراء وتركت التشرد وكونت صداقة غريبة مع مدير كبير، وتناولت أفخر الأطعمة، ونمت في أكثر الأجنحة

الفندقية فخامة، وقررت ترك أمريكا والعودة للوطن الذي ولدت فيه، واتصلت بزوجتي التي سبق أن هجرتها لسنوات، وأعدت علاقتي بها وربحت وخسرت ما يقارب المليون دولار وكل ذلك حدث خلال 72 ساعة.

ملاحظة أخيرة: مبلغ الثلاثمائة دولار الذي ستجدينه في المحفظة هو المبلغ ذاته الذي أخذته منك يوم غادرت البيت في هيوستن للسفر إلى بولدر، التي لم أرها حتى اليوم. لسبب لا أعرفه أبقيت المبلغ معي بالرغم من الظروف الصعبة جدًا التي مررت بها، ولا أدري كيف ستفسرين تصرفي هذا، ولا أعرف أنا كيف أفسره.

وأخيرًا أرجو منك المعذرة، المعذرة ألف مرة، فقد سببت لك الكثير من الألم، ولن أغفر لنفسي ما فعلته بك، ولكن ما يخفف عني آلامي أنني سوف لن أكون على قيد الحياة لأعاني منها، فرئتي التي أتلفتها في النوم في العراء وكميات السجائر التي قمت بتدخينها في اليومين

الأخيرين سوف تعجلان في رحيلي قبلك بكثير.

برهان.